الأجنحة المتكسّرة

جـبران خليل جـبران

الأجنحة المتكسّرة

THE BROKEN WINGS

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية
بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

* الأجنحة المتكسرة / جبران خليل جبران
* مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي
* سنة الطباعة عام ٢٠٠٨ عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر الدكتور نزار بريك هنيدي

بمـاذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمـال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشـخصـية التي تختلف بين متلق وآخر، كمـا أنهـا تتنوع وتتطور وتتغير بين بلـد وآخر، وبين عصـر وعصـر،فكيف يتـاح لنـا أن نطلق حكم القيمـة الموضـوعي دون أن يكون هذا الحكم مشـوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تمـامـاً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المسـتمرة للإجابة عن هذه الأسـئلة التي تشـكل أسـاس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسـان نصـوصـه الأدبية الأولى. وفي يقيني

إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من

هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه،إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصـــله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصـيرة مع فصـول سـيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام١٨٨٣ في مدينة صـــغيرة تقع فوق وادي قاديشـــا في شـــمال لبنان، تدعى (بشـــري). ومن الطريف أن جبران الذي كـان يؤمن أوثق الإيمـان بـالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحســـب ولادته في شـــمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرســـوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما اضــطر والدة جبران (السـيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة

بهم إلى مـدينـة (بوســـطن) في الولايـات المتحـدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت ســيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رســـائلـه إلى (مي زيـادة) بقولـه: (كـانـت محبوبـة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شـــقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من ســيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صـديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مســتقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوســـطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرســـم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشـرقي الذي يمتدح رسـومه من معين الطبيعـة البكر، فتعهده بـالتعليم والرعـايـة، وعَرَّفَـهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار

(كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل خريف عام ١٩٨٩، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى

إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من ألفة واطمئنان، ففي نيسان١٩٠٢ بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها

في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقى) عام ١٩٠٥، وأتبعه عام ١٩٠٦ بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي ستتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام

١٩٠٨ والذي صـــدّره بالتقديم التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي ســكب أســراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شــعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاســكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز ١٩٠٨ حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرســم معتمداً على فطرته دون أية دراســة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراســلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صــغيرة عزيزة وطفلة صــغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشــتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه

الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة ١٩١٢ أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة، وتسمع نغمة الروح الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة ١٩١٢ بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة١٩١٦ كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام ١٩٢٠ أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية)

وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصـــدر عام ١٩١٩ قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام ١٩٢٠ كتابه (العواصف)، وفي عام ١٩٢٣ نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضـــل علاقته مع ماري هاســـكل،التي اســـتمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوســـطن وتزوجت. وقد أصـــــدر جبران كتـاب (المجنون) عـام ١٩١٨ بـاللغـة الإنكليزيـة وأتبعـه عـام ١٩٢٠ بكتـاب (الســـابق) وعـام ١٩٢٣ صـدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة ١٩٢٥ التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي أصـبحت سـكرتيرته الخاصـة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصـــدر كتاب (رمل وزبد) عام ١٩٢٦، وكتاب (يســـوع بن الإنســـان) عام ١٩٢٧، و(آلهة الأرض) عام ١٩٣٠، و(التائه) سـنة ١٩٣١ وكتب فصـــولاً من كتـاب (حـديقـة النبي) التي ســـوف تعمـل سكرتيرته

على إتمامه ونشـــره بعد وفاته، ففي ربيع ١٩٣١ اشـــتدت عليه وطأة المرض، فنقلته ســـكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين

شـكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنســـان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحســه المرهف النافذ مدى الانفصـــام الحاصـــل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قســوة علاقات الحياة اليومية بين البشـــر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة بإضفاء المعنى على الوجود البشـري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب

الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الموعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثُّلُهُ لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام١٩٢٩ حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي،جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين

الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكوّنات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني

أما بنية الأدب الجبراني، فتتألف من مزيج من العناصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسي وواقعي وصوفي وثوري وحداثي في الوقت نفسه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هذه الخيوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة

الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن لا ولا فيها الهموم

فإذا هبّ نسيم لم تجئ معه السموم

ليس في الغابات حرّ لا ولا العبد الذميم

إنما الأمجاد سخف وفقاقيع تعوم

لم أجد في الغاب فرقاً بين نفس وجسد

فالهوا ماء تهادى والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ وتنشّفتَ بنور

وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثير

هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً وتَلَحَفّتَ الفضا

زاهداً فيما سيأتي ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، ووَلَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصّاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصـــته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الـداعرة، قـد لا تكون ســـوى فتـاة فقيرة ســـحقهـا الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصـــة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسـترون بإهاب الدين، قد لا يكونون أقل وحشـية وقدرة على ظلم الآخرين وسـلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما أن قصـــة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ـــ ولا يزال ـــ في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشـيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقهـا في الاختيـار فهي أمور يضـــرب بهـا المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآســـي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأســاس الواقعي لكل قصـص جبران الأخرى، مثل صـــراخ القبور، ومضـــجع العروس، وخليـل الكـافر والأجنحة

المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لا سبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً

متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفســـها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضـــة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام ١٩١١ كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عـام ١٩١٦ كتـب نص (مـات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضـــتهم وتحررهم، كما في نص (الأضـــراس المســـوســـة)، ونص (المخـدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صـــوفيّة) جبران، فنلمســـها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصـول إلى المعرفـة. فـإذا كـان العقـل يرى المظهر الخـارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك

البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولا يمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه (دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً.. وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة

لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه).
والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه (رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ

جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر (ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه

العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

ولأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه

الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولـذلـك يعلن جبران ثورتـه على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضـد جماهير الفقراء والمستضـعفين، وهو يرى في تحالفهم الأســود هذا (علّة مزمنة قابضـــة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجســاد الفقراء الضــعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسـلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المســـكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابســـاً والمطران يلتفت نحوهم مبتســـماً، وبين عبوســة النمر وابتســامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشــــريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصـلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن

في اســتغلال الشــريعة لتبرير الســيطرة على جموع الشــعب، لذلك قال (الشــريعة، وما هي الشــريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشــيئته في البشــر؟ وفي أي جيل من الأجيال ســـار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضـــعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمســـك بموروث الماضـــي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (إن بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفســـه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصـــير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشـــكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضــر الناس بماضــي آبائهم، وتنيخ نفوســهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجســـاداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام

١٩١١ بعد أن بلغته أخبار من ســـورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّـــر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا،بأن يعتمـدوا على الـذات.. أريـدهم أن يعرفوا أن عرش الســـلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضـــيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماســـية التي لن تؤدي إلا إلى وضـــع ســـورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السـورية أضـراس بالية سـوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشـــوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لا تشفى، ولن تشفى بغير

الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة ١٩١٧: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة

العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصـــبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤســـســـاً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضــــه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشــاعر هو من يرى ما وراء الأشـياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضـــجة الأرض ليســـمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشـــعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفســي أغنية لا ترتضــي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق). فلغة

الكلام العادية لا يمكن أن تصـلح للتعبير عما يحسّـه الشـاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شـاعر من أن يخلق لغته الخاصـة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصـلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان،الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسـخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصـيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يســـخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشـعر العربي والنســج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصـــالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون ســـوى نســـخة ثانية باهتة لا نضـــرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سـيصـبح مورداً لأفكـار عقيمـة ومقوداً لرؤوس مشـــاهير يومنـا لهرقـا المحـابر في محـاجر النســيـان، وحطّمـا الأقلام بـأيـدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يســير من مكان إلى مكان على الطريق التي ســار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشـــكال القديمة والصـــيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من

نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي



الأجنحة المتكسرة

دراسة تحليليّة

أصــدر جبران (الأجنحة المتكسّــرة) عام ١٩١٢ في نيويورك. وإذا كانت نصـــوصــــه في كتابيه الســـابقين (عرائس المروج) و(الأرواح المتمرّدة) قد أخذت شـــكل القصــة القصـيرة، فإنه في (الأجنحة المتكسّـرة) حاول أن يقارب شكل الرواية. لذلك أفرد لها كتاباً مستقلاً، وقسّمها إلى فصـول متعددة يحمل كل منها عنواناً خاصـاً به، وقدّم لها بتوطئة تهيّئ القارئ للتفاعل مع ما سيتعرّف عليه من الشخصيّات، وما سيطالعه من أحداث.

وبالرغم من تأكيد (ميخائيل نعيمة) على أن جبران في (الأجنحة المتكســرة) كان يروي قصــة حبه الأول يوم كان طالباً في بيروت، فإن الرواية في بنائها العام وحركة

شخصيّاتها وسيرورة أحداثها تمثّل خير تمثيل الرواية الرومانسية للحبّ كما ظهرت عند روّاد الرومانسية الأوائل. بل يمكن لنا ببساطة أن نلحظ ما يكاد يكون تطابقاً في الخطوط العامة للأجنحة المتكسرة مع رواية (هيلويز الجديدة) لـ (روسو) التي يعتبرها النقاد الأصل الذي تمثّله الكثير من الروائيين الرومانسيين في ما كتبوه من روايات وقصص تتخذ من الحب المعذّب موضوعاً لها . ففي رواية (روسو) يحبّ البطل فتاة اسمها (جوليا)، لكن تقاليد المجتمع تجبرها على الزواج من غيره، كما أحب بطل جبران سلمى ولكن التقاليد أجبرت أباها على تزويجها من ابن أخ المطران. ومع ذلك بقي الحبيبان على حبهما في الروايتين معاً، وقد حاول بطل (روسو) إقناع حبيبته بالهرب معه إلى بلد آخر فلم تقبل، كما حاول بطل (جبران) إقناع سلمى عندما التقاها في المعبد للمرة الأخيرة بالهرب معه فلم تقبل، مفضلة التضحية بسعادتها لكي يبقى هو بعيداً عن غدر الناس واضطهادهم. وكما بقي حب البطلين عند (روسو) عفيفاً طاهراً، كذلك بقي عند (جبران). وإذا كانت بطلة (روسو) تقول: (إن الشريعة الزائفة هي التي تضاد الطبيعة)، فإن جبران يقول: (إن الجامعة البشرية قد

استسلمت سبعين قرناً إلى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة). وقد توفيت بطلة (روسو) بعد محاولتها إنقاذ ابنها من الغرق، كما توفيت بطلة (جبران) بعد وضعها لابنها. وكما قالت (جوليا) لحبيبها (وهذه الفضيلة التي فصلت ما بيننا في هذه الأرض ستجمعنا في مقام الخلد) فإن (سلمى) تقول: (أما المحبة التي تولد في أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود).

وفي الحقيقة، فإن (جبران) يصرّح بمذهبه الرومانسي تصريحاً في التوطئة التي قدّم بها روايته، ذلك أن المذهب الرومانسي يقوم في الأساس على ثالوث الحب والجمال والموت، وهو الثالوث نفسه الذي تقوم عليه رواية (الأجنحة المتكسرة) حسب قول جبران نفسه: (أما غصّات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلّم وهي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثّلها الحبّ والجمال والموت.) كما إن الإهداء الذي صدّر به كتابه ووجّهه إلى صديقته (ماري هاسكل) يشي أيضاً برومانسيته حين يكتب: (إلى التي تحدّق إلى الشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع

مرتعشة، وتسمع نغمة الروح الكلّي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى **M.E.H** أرفع هذا الكتاب.)

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن لنا أن نتتبع مفاهيم جبران الرومانسية في المعمار الفني للرواية، وبناء شخصيّاتها، وفي حركة هذه الشخصيات ومواقفها. وكذلك في المقولات الكثيرة التي يبثّها جبران في صفحات الكتاب.

فالراوي (بطل الرواية نفسه) تشخيص حقيقي للفرد كما يراه الرومانسيون، فصدره ممتلئ بأوجاع التأمل ومرارة التفكير، وعلى قلبه نقاب من اليأس والقنوط نسجته أصابع الحيرة والالتباس، وهو كئيب جاهل بأسباب كآبته، وحزين لا يعرف سبباً لحزنه، في نفسه علّة طبيعيّة تحبّب إليه الوحدة والإنفراد، فليس سوى سحر الطبيعة ما تسكن إليه روحه، وليس سوى الحب ما يعتق لسانه.

أما بطلة الرواية (سلمى كرامة) فهي حوّاء القلب المملوء بالأسرار والعجائب، وهي روحيّة الميول والمذاهب، ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النفس، وهي جميلة

النفس والجسـد، نحيلة، تظهر بملابسـها البيضـاء الحريرية كأشـعة قمر دخلت من النافذة!،.. وهي ترتدي وشـاحاً معنوياً من الكآبة يزيد محاسـن جسـدها هيبة وغرابة!.. أما روحها فشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللانهاية..!

وكذلك فإن شـخصـية والد سـلمى لا تخلو من الرومانسية أيضاً، فهو شيخ شريف القلب كريم الصفات، أمضـى عمره دون أن يلامس بالأذى نفس مخلوق، وهو يعيش شيخوخته الذابلة مشدوداً إلى ذكريات أيام الصبا، وشـغوفاً بأخبار الحياة التي لم تعد تحسـبه من أبنائها، ومستعجلاً الرحيل إلى الأبدية لأن روحه اشتاقت إلى لقاء زوجته التي فقدها قبل أن تبلغ سلمى الثالثة من العمر.

ولعلّه من الطريف أن جبران يصـرّ على إضـفاء الرومانسية حتى على شخصية الطفل الذي ولدته سلمى ولم يعش سـوى دقائق معدودات. فهو يصـفه قائلاً: (ولد كالفكر، ومات كالتنهدة، واختفى كالظل).

أما الأمكنة التي اختارها جبران كي تتحرك فيها

شخصيات روايته، فهي أمكنة رومانسية بامتياز. فبطل الرواية نشأ في بقعة جميلة من شمال لبنان حيث الأودية مملوءة سحراً وهيبة، والجبال متعالية بالمجد والعظمة. ومنزل فارس كرامة، حيث بدأت أحداث الرواية، هو منزل منفرد تحيط به حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الأغصان وتعطّر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين. وهو هيكل أقامه الجمال وقدّسه الحبّ لتسجد فيه النفس مصلّية ويركع القلب خاشعاً. أما الخلوة السرية التي كانت تجمع الحبيبين، فلم يشأ جبران إلا أن تكون في معبد عجيب قديم العهد، محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف، على جداره الشرقي صورة تمثّل عشتروت وحولها سبع عذارى عاريات، وعلى الجدار الثاني صورة تمثل يسوع الناصري مصلوباً وإلى جانبه أمّه الحزينة ومريم المجدليّة وامرأتان ثانيتان تنتحبان. وفي الجدار الغربي كوّتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب!.

ويمكن ملاحظة الرومانسية أيضاً في سلوك البطلين،

وفي ردود أفعالهما تجاه ما يواجههما من أحداث، بدءاً من لحظـة لقـائهمـا الأول، ومروراً بموقفهمـا من الزواج الذي فرض على ســلمى، ثم موت والدها، وموت طفلها، بل وفي لحظة احتضــارها أيضــاً حين تضــمّ ولدها الميت وتخاطبه قائلة: (قد جئت لتأخذني يا ولدي.. جئت لتدلّني على الطريق المؤدية إلى الســاحل. هاأنذا يا ولدي فســر أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم). وكذلك حين يقول البطل لحفّار القبور: (وفي هذه الحفرة أيضــاً دفنت قلبي أيها الرجل، فما أقوى ساعديك!).

وكعادته في كتبه السابقة، لا يكتفي جبران بما توحي به الأحداث التي يرويها من أفكار تلخّص رؤيته للوجود والإنســان، بل يعمد إلى بثّ آرائه ومعتقداته في مقولات صريحة على لسان شخصيّاته، أو على لسانه هو بعد أن يقحم نفســه في ســياق الســرد دون مبرّر فني في غالب الأحيان. وهكذا فلو اقتطعنا مقولاته في الحب والجمال والحزن والألم والموت، التي ضــمّنها صــفحات هذا الكتاب، لخرجنا بخطاب نظري يمثّل المذهب الرومانسي خير تمثيل!

فالحبّ عنده هو المنفذ إلى عالم المعرفة. وهو جوهر أزلي كائن في أصــل الوجود ومبتدأ الخلق، إذ إنه عاطفة يتمايل حولها القلب بهدوء يشــابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل أن تبتدئ الدهور، ومن تلك العاطفة تتولد السعادة والتعاسة مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح. والمحبّة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام ســام لا تبلغه شــرائع البشــر وتقاليدهم ولا تســوده نواميس الطبيعة وأحكامها. والحب هو الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً، الخبز الســحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم.. إنه الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلاً للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره. والحب أقوى من الحياة والموت والزمن، ولذلك فهو لا يعرف الحســد لأنه غني، ولا يوجع الجســد لأنه في داخل الروح، وظمأ الروح أعظم من ارتواء المادة، وخوف النفس أحبّ من طمأنينة الجســد. إن الحب الحقيقي هو الذي يولد في أحضــان اللانهاية، ويهبط مع أسرار الليل فلا يقنع بغير الأبدية ولا يكتفي

بغير الخلود، ولا يقف متهيّباً أمام شـــيء ســـوى الألوهيّة.

وهكذا يبدو واضـــحاً أن هذه الرؤية للحب (بما تتضـــمّنـه من تقديس يجعلـه أقوى من الحيـاة والموت والزمن، وبمـا تنضـــوي عليـه من تـأكيد على طبيعتـه الروحية المتعالية على معطيات المادّة وشـهوات الجسـد) لا يمكن أن تصدر إلا عن نفس مفطورة على الرومانسية، وعن عقل استوعب جوهر المذهب الرومانسي كما تجلى في كتابات أعلامه الكبار. وأغلب الظن أن جبران المثقّف قد قرأها، فلاقت تناغماً مع أحاســـيســـه وميوله وبنيته النفســـيـة والفكريـة، ممـا جعلـه واحـداً من أكبر ممثلي الرومانسية في الأدب العربي الحديث.

ويمكن لنا قول الشـــيء نفســـه عن مفهومه للجمال، فالجمال ســـر تفهمه الأرواح وتفرح به وتنمو بتأثيراته، أما الأفكار فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجســـيده بالألفاظ ولكنها لا تسـتطيع. وليس للجمال كينونة مسـتقلة قـائمـة في الواقع الخـارجي، بـل هو شـــيء تولّده النفس ذاتها، إذ إن كل شـــيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولّد من فكر واحد أو من حاسة واحدة في داخل

الإنســـان. لذلك تتغيّر الأشـــياء أمام أعيذنا بتغيّر عواطفنا، ونتوهّم الأشياء متشحة بالسحر والجمال، عندما لا يكون الســحر والجمال إلا في نفوســنا. وهكذا لا يمكن قياس الجمال ولا تحديده ولا نسخه، ولا يمكن للكلمات أن تعبّر عنه تعبيراً حقيقيّاً. لذلك حين أراد جبران أن يصــف لنا جمال وجه (ســلمى) لم يكن بوســعه إلا أن يقول إن جماله لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضــعها البشــر للجمال، بل كان غريباً كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوي لا يقاس ولا يحدّ ولا ينسخ بريشة المصّور...

وهكذا فالجمال في مفهوم جبران-كما هو في مفهوم الرومانسيين ــ ليس جمالاً مادياً ينبع من تفاصيل الجسد، بــل هو جمــال روحي أو معنوي.فهو ليس في الشـــعر الذهبي، بل في هالة الطهر المحيطة به. وليس في العينين الكبيرتين، بل في النور المنبعث منهما. وليس في الشفتين الورديتين، بل في الحلاوة الســـائلة عليهما. ويضـــيف جبران: لم يكن جمال ســـلمى في كمال جســـدها، بل في نبالة روحها الشــبيهة بشــعلة بيضـــاء متقدة ســـابحة بين الأرض واللانهاية. ومادام الأمر كذلك، فإن المثل الأعلى الذي

يجب أن يقاس به الجمال يصـــبح هو ذلك الجمال الفني الذي تتفتّق عنه عبقرية الشـــعراء ونبوغ الفنانين، لذلك يقول جبران: جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد أشباحه في القصائد السامية والرسوم والأنغام الخالدة.

ولمّـا كـان تمجيـد الألم والحزن والكـآبـة والاحتفـاء بالوحدة والصــمت والسـكينة، والشـعور بالخواء والقلق والحيرة،من خصـــائص الأدب الرومانســـي، فإن جبران يحمل أبطاله على التصــريح بهذه المشـــاعر على امتداد فصول روايته جميعها. فمنذ الصفحة الأولى يعلن الراوي أن حياته كانت (خالية مقفرة باردة شـبيهة بسـبات آدم في الفردوس). ويمكن للقـارئ أن يقـارن هـذا الوصـــف، بوصـــف (شـــاتوبريـان)، وهو واحد من كبـار الكتـاب الرومانسيين الفرنسيين، لبطله (رينيه) حيث يقول: (كان رينيه يحيا مسـتغرقاً في ذات نفســه، كأنه خارج ما يحيط به من عالم، لا يكاد يرى ما يحدث حوله، ســجين في وسط آلامه وحزنه).

ومن الواضح أن تأكيد جبران على شعور بطله

بالكآبة والحزن والانقباض مع جهله للأسباب التي تبعث في نفسه تلك المشاعر، ما هو إلا من قبيل تأكيد الطابع الرومانسي لشخصيّته. فالشخصية الرومانسية مجبولة بفطرتها على الشعور بالأسى والضيق حتى في غياب أي محرض خارجي يدفعه إلى ذلك. وهو ما عبّر عنه (شاتوبريان) بقوله: (إن قلبي قد عجنت طينته من الضيق والبؤس). ولذلك يفصل جبران تلك الأعراض عن أي سبب خارجي، ويعتبرها نتيجة لعلّة طبيعية في النفس تحبّب إليها الوحدة والانفراد. كما يؤكد على العلاقة بين الوحدة والكآبة فيقول إن الوحدة حليفة الكآبة كما إنها أليفة كل حركة روحية، فللكآبة أيد حريرية الملامس قويّة الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة. والمرء إن لم تحبل به الكآبة ويتمخّض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الأحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان.

وفي هذه العبارة الأخيرة نتلمس ملمحاً آخر من ملامح الشخصية الرومانسية، وهي (التعالي الرومانسي) حيث لا يمكن لأي امرئ أن يحقّق وجوده في كتاب الكيان إلا إذا كان متمتعاً بالخصائص الرومانسية، أما الآخرون

فإن علاقتهم الواقعيّة مع العالم تجعلهم عاجزين عن السباحة في فضاء الروح. وهو ما يقوله جبران بعبارة أخرى وفي موضع آخر أيضاً حين يتساءل: أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى النفس، وتنقل همس القلب إلى القلب؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود، مقتربين من الملأ الأعلى، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق السجون الضيّقة، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟.

أما بطلة جبران، فنفسها حزينة متألمة كما يصفها، وهو يؤكد أن رابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور، لأن النفس إذا اغتسلت بالدموع وتطهّرت بالنار تتحرّر من عبودية الشرائع والنواميس. ومن لا يعاني الألم لا يمكن له فهم طبيعة الحياة، ذلك إن من لا تلسعه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظلّ مغروراً بالأيام والليالي، على حد قوله..ومن لا يشرب الكأس المفعمة بالخل والعلقم، لن يستطيع أن يرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا. ولذلك أيضاً كان عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة.

ولما كان الرومانسـيون لا يرون في الموت نهاية للحياة، بل بوابة يعبر منها الإنسـان إلى عالم الحقائق العليا، حيث يقول الرومانسي الألماني (نوفاليس) : (يجب أن يعدّ موتي برهاناً على شـعوري بالحقائق العليا) . فإن جبران أيضـاً يرى أن حياة الإنسـان لا تبتدئ في الرحم، كما أنها لا تنتهي أمام القبر، وما حياة الإنسـان على هذه الأرض سوى سجن له، ولحظة الموت هي التي تتيح لنا أن نلمح ما وراء الغيوم، فنكسر بأجنحتنا قضبان القفص، وهي اللحظة التي تسـتيقظ فيها الروح حين يلوح الفجر وينتهي الحلم.. إن أيامنا في هذه الحياة هي أيام عبودية، وبالموت تطلب الروح حرية الفضاء.

وهكذا يمكن للباحث أن يتقصـى جميع المقولات الرئيسة للمذهب الرومانسي كما تمثّلها جبران، مما يجعل من (الأجنحة المتكسـرة) رواية رومانسـية بامتياز. ومع ذلك، فإن خصـوصـية جبران التي تكمن في قدرته على المزج بين العناصـر الرومانسـية والواقعية، والجمع بين الرؤى الصـوفية والتطلعات الثورية، في خلطة سـحرية مدهشـة، تتجلى أيضـاً في هذه الرواية، التي يضـمنّها مقولاته الرئيسة التي كانت محور نصوصه في كتابيه

السابقين (عرائس المروج) و(الأرواح المتمردة).

فهو يدين المجتمع الذكوري الذي حول الزواج إلى تجارة مضــحكة مبكية، كما يدين المدنيّة الحاضــرة التي جعلت المرأة قبيحة بتفنّنها ســطحيّة بمداركها. وهو يرى في المرأة الضــعيفة رمز الأمة المظلومة التي تتعذّب بين حكامها وكهانها. ويرى كيف تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين. وكيف تستسلم الأمم الشرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاســدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض. ويصبّ جام غضبه على أركان التحالف البغيض القائم على الاســتبداد والاســتغلال والذي ما فتئ يندّد به في كتابيه الســابقين، فيدين الأمير الذي ينقل مجده بالإرث إلى أبنائه، وأصــحاب رأس المال الذين اتخذوا من الدينار إلهاً يعبدونه، ورؤساء الأديان الذين يصبحون كأفاعي البحر التي تقبض على الفريســة بمقابض كثيرة وتمتصّ دماءها بأفواه عديدة.

وإذا كان جبران يفصح عن مذهبه العرفاني الصوفي حين يؤكد أن النفس لا تستطيع فهم المعاني حتى تنعتق

من عالم المقاييس والكمية، وتطير إلى مسارح الملأ الأعلى، فإن ثوريّته تتجلى في دعوته الصريحة إلى الخروج على الشرائع الفاسدة التي استسلمت لها الجامعة البشرية سبعين قرناً، وفي تحريضه على التمرّد والثورة، لأن من يصبر على الضيم ولا يتمرّد على الظلم يكون حليف البُطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الأبرياء.

إلا أن أهم ما تتميّز به رواية (الأجنحة المتكسّرة) هو بلوغ اللغة فيها على يدي جبران حدّاً من الشفافية والشاعرية أتاح لها أن تقول ما لا يمكن للغة العادية أن تقوله، فخرجت بذلك من أرض النثر لتطاول فضاء الشعر. بل إن بعض مقاطع الرواية يمكن لنا اليوم أن نقرأها كقصائد نثر حقيقيّة لا تبتعد كثيراً عن مفاهيمنا العصرية لشعريّة قصيدة النثر. ولنقرأ مثلاً هذا المقطع:

(ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري
وتركت مسرات عشتروت وأفراحها
قد كلّلت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار
واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب
وتجرّعت الخلّ والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر

فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم
وسيّرني نحو الجلجلة
برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم
المغبوطين على كآبة قلوبهم)

فهذا المقطع يبدو مكتفياً بذاته، قادراً على الوجود بمفرده، وهو يحمل رؤيا شعرية للجوهر الإنساني في مواجهته للعالم والوجود، رؤيا غير محدّدة بزمان أو مكان معينين، مما يجعل المقطع قابلاُ للتعبير عن كثير من المواقف الأصيلة التي تواجه الإنسان. وإن اعتماد لغة المقطع على المجاز والتعبير بالصور والتوظيف الموحي لعناصر من الذاكرة الجمعية أو الميثولوجية (صليب يسوع ـــــ عشتروت)، بالإضافة إلى لهجة الخطاب، والتقابل القائم بين الألفاظ والجمل، والبناء الفني المتماسك، كل ذلك جعل المقطع يتجاوز ما اصطلحنا على تسميته بالنثر الشعري، ليحقق قصيدة نثر كاملة.

ويمكن للكلام السابق نفسه أن ينطبق على عدد كبير من مقاطع الرواية، مثل هذا المقطع الذي يشكّل قصيدة حب لا تنقصها الحرارة والتوهّج، ولا تقل رقة

وشفافية وجمالاً عن الكثير من قصائد الحب المعروفة في تاريخ الشعر:

(سوف أحبّك يا سلمى محبة الحقول للربيع

سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس

سوف أترنّم باسمك

مثلما يترنم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى

سوف أصغي لأحاديث نفسك

مثلما تصغي الشواطئ لحكاية الأمواج).

وهكذا نتلمّس طبيعة النسيج الجبراني الذي منح هذه الرواية خصوصيتها وفرادتها، وجعلها قادرة على تخطّي الزمن، فبقيت صالحة للقراءة بعد مرور ما يقرب من قرن كامل على صدورها، وإن كان جبران يقول: إن هذه الحكاية لم تكتب للذين لم يتخذهم الحبّ أتباعاً، فهم وإن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً.!

د. نزار بريك هنيدي / دمشق ٢٠٠٢/٧/١٨

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (٤)

الأجنحة المتكسرة

The BROKEN WINGS

BY KAHLIL GIBRAN

(١٩١٢)

إلى التي تحـدق إلى الشـــمس بـأجفـان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة، وتســمع نغمة الروح "الكلي" من وراء ضـــجيج العميان وصـــراخهم. إلى **M. E. H** أرفع هذا الكتاب.

جبران

توطئة

كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحبّ عينيّ بأشعّته السـحريّة، ولمس نفسـي لأول مرة بأصـابعه الناريّة، وكانت سـلمى كرامة المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسـنها، ومشـت أمامي إلى جنة العواطف العلويّة، حيث تمرّ الأيام كالأحلام، وتنقضي الليالي كالأعراس.

سلمى كرامة هي التي علّمتني عبادة الجمال بجمالها، وأرتني خفايا الحبّ بانعطافها، وهي التي أنشـدت على مسمعي أوّل بيت من قصيدة الحياة المعنويّة.

أيّ فتىً لا يذكر الصـبيّة الأولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتاكة

بحلاوتها؟ من منّا لا يذوب حنيناً إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحوّلت، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكلّ ما فيها من مرارة الكتمان، مستحبّة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد؟.

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته، وتجعل لانفراده معنىً شعرياً، وتبدّل وحشة أيّامه بالأنس وسكينة لياليه بالأنغام.

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحبّ يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور. فسلمى كرامة هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب، وهي التي أفهمته كنه هذا الوجود، وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح. حواء الأولى أخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده، أمّا سلمى كرامة فأدخلتني إلى جنّة الحبّ والطهر بحلاوتها واستعدادي، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني، والسيف

الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصيّة، وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشرّ.

واليوم وقد مرّت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام، لم يبقَ لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني.. وسلمى ــــ سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو. فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامة، غير أن السكينة التي تخفر القبور، لا تفشي ذلك السرَ المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد، لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة. أما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحبّ والجمال والموت.

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر أدخلوها صامتين، وسـيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى، وقفوا متهيبين بجانب قبر سـلمى، وحيوا عني التراب الذي ضمّ جثمانها، ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر إلى ما وراء البحار، وههنا توارت أمانيه، وانزوت أفراحه، وغارت دموعه، واضـمحلت ابتسـاماته، وبين هذه المدافن الخرسـاء تنمو كآبته مع أشـجار السـرو والصـفصـاف، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كلّ ليلة مسـتأنسـة بالذكرى، مرددة مع أشـباح الوحشـة ندبات الحزن والأسـى، نائحة مع الغصـون على صـبية كانت بالأمس نغمة شجيّة بين شفتي الحياة، فأصبحت اليوم سراً صامتاً في صدر الأرض.

أسـتحلفكم يا رفاق الصـبا بالنسـاء اللواتي أحببتهنّ قلوبكم أن تضـعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبّها قلبي ـــ فربّ زهرة تلقونها على ضـريح منسـيّ، تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة.

الكآبة الخرساء

أنتم أيّها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسفين على انقضائه، أمّا أنا فأذكره مثلما يذكر الحرّ المعتق جدران سجنه وثقل قيوده. أنتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه، ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة، أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفيّة خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه وتتكاثر نامية بنموه، ولم تجد منفذاً تنصرف منه إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحبّ وفتح أبوابه وأنار زواياه. فالحبّ قد أعتق لساني فتكلمت ومزّق أجفاني، فبكيت وفتح حنجرتي، فتنهدت وشكوت.

أنتم أيّها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشـــوارع التي رأت ألعابكم وســـمعت همس طهركم، وأنا أيضـــاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شـــمال الأودية المملوءة ســـحاً وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون. ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن، وأتشوّق إليها تشـوّق الرضـيع إلى ذراعي أمّه هي هي التي كانت تعذب روحي المســـجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذّب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب بزاة تسبح حرّة في الخلاء الواسع ـــ وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمّل ومرارة التفكير وتنســـج بأصـــابع الحيرة والالتباس بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصـابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي ــ فلم أذهب إلى البريّة إلاّ عدت منها كئيباً جاهلاً أسباب الكآبة، ولا نظرت مســاء إلى الغيوم المتلونّة بأشـعة الشـمس إلا شـعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزيناً لجهلي موحيات الحزن.

يقولون إن الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة ـ وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون كالأجســـاد الهامدة الباردة فوق التراب، ولكن إذا كانت الغبـاوة العميـاء قـاطنـة في جوار العواطف المســتيقظـة تكون الغباوة أقسى من الهاوية وأمرّ من الموت. والصبي الحسّـــاس الذي يشـــعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشــمس لأن نفســه تظلّ واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين: قوة خفية تحلق به في الســـحاب وتريه محاســن الكائنات من وراء ضـبـاب الأحلام، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض، وتغمر بصـــيرته بالغبار، وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة.

للكآبة أيدٍ حريرية الملامس قوية الأعصـــاب تقبض على القلوب، وتؤلمها بالوحدة، فالوحدة حليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية، ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة، وتأثيرات الكآبة شـبيهة بالزنبقة البيضـاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النســيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور أخيلة المساء، فإن لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة

أمامه كحبس ضـــيق لا يرى في جوانبه غير أنوال العناكب، ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات.

أمّا تلك الكآبة التي اتبعت أيام حداثتي، فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملاهي، لأنها كانت متوفرة لديّ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت، بل هي من أعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبّب إليّ الوحدة والانفراد، وتميت في روحي الميول إلى الملاهي والألعاب، وتخلع عن كتفي أجنحة الصـــبا، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رســـوم الأشـــباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصـــان، ولكنه لا يجد ممراً يسير فيه جدولاً مترنماً إلى البحر.

هكذا كانت حياتي قبل أن أبلغ الثامنة عشـــرة، فتلك الســـنة هي من ماضٍ بمقام القمة من الجبل لأنها أوقفتني متأملاً تجاه هذا العالم، وأرتني سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم.

في تلك الســـنة ولدت ثانية، والمرء إن لم تحبل به الكآبة، ويتمخض به اليأس، وتضعه المحبة في مهد

الأحلام تظل حياته كصـفحة خالية بيضــاء في كتاب الكيان.

في تلك السـنة شـاهدت ملائكة السـماء تنظر إليّ من وراء أجفان امرأة جميلة، وفيها رأيت أبالســة الجحيم يضجون، ويتراكضون في صدر رجل مجرم ـــ ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف.

يد القضاء

كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب، وكان نيســـان قد أنبت الأزهار والأعشـــاب، فظهرت في بسـاتين المدينة كأنّها أسـرار تعلنها الأرض للسـماء، وكانت أشـجار اللوز والتفاح قد اكتسـت بحلل بيضـاء معطرة فبانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصـــعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لأبناء الشعر والخيال.

الربيع جميل في كل مكان ولكنّه أكثر من جميل في ســـوريــة.. الربيع روح إلــه غير معروف تطوف في الأرض مسـرعة وعندما تبلغ سـورية تسـير ببطء متلفتة إلى الوراء مستأنسـة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضـــاء، مترنمة مع جداول اليهودية بأناشــيد ســليمان الخالدة، مردّدة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم.

وبيروت في الربيع أجمـل منهـا في مـا بقي من الفصول،

لأنها تخلو فيه من أوحال الشـــتاء وغبار الصـــيف، وتصبح بين أمطار الأول وحرارة الثاني كصبية حسناء، قد اغتسـلت بمياه الغدير، ثم جلســت على ضـفته تجفّف جسدها بأشعّة الشمس.

ففي يوم من تلـك الأيـام المفعمـة بـأنفـاس نيســـان المسكرة وابتساماته المحيية، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتـاً بعيـداً عن ضـــجـة الاجتمـاع. وبينمـا نحن نتحـدث راســـمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شـــيخ جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار، فوقفت احتراماً، وقبيل أن أصــافحه مسـلماً تقدم صــديق، وقال: حضـرته فارس أفندي كرامة، ثم لفظ اســمي مشــفوعاً بكلمة ثناء، فحدق إلي الشـيخ هنيهة لامســاً بأطراف أصــابعه جبهته العالية المكللة بشـعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسـترجع إلى ذاكرته صـورة شــيء قديم مفقود، ثم ابتسـم ابتســامة ســـرور وانعطاف واقترب مني قائلاً: أنت ابن صـــديق حبيب قديم صــرفت ربيع العمر برفقته، فما أعظم فرحي بمرآك وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك!.

فتأثرت لكلامه وشـــعرت بجاذب خفيّ يدنيني إليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصـــفور إلى وكره قبيل مجيء العاصـــفة. ولما جلســـنا أخذ يقص علينا أحاديث صــداقته لوالدي متذكراً أيام الشـباب التي صـرفها بقربه تالياً على مسـامعنا أخبار أعوام قضـت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صـدره.. إن الشـيوخ يرجعون بالفكر إلى أيام شـــبابهم رجوع الغريب المشـــتاق إلى مســـقط رأســـه، ويميلون إلى سـرد حكايات الصـبا ميل الشـاعر إلى تنغيم أبلغ قصـــائده، فهم يعيشـــون بالروح في زوايا الماضـــي الغابر، لأن الحاضـر يمر بهم ولا يلتفت، والمسـتقبل يبدو لأعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر.

وبعد ســـاعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصـــان على الأعشـــاب، وقف فارس كرامة للانصـــراف، ولما دنوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه، ووضـــع شـــماله على كتفي قائلاً: أنا لم أرّ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو أن أستعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة.

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم ما يجب على الابن

نحو صديق أبيه.

ولما خرج فارس كرامة استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحذر: لا أعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً، وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين، لأنه يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم.. ولفارس كرامة ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقة وجمالاً، وهي أيضاً ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة.

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والأسف ثمّ زاد قائلاً: فارس كرامة شيخ شريف القلب كريم الصفات، ولكنه ضعيف الإرادة يقوده رياء الناس كالأعمى وتوقفه مطامعهم كالأخرس. أما ابنته فتخضع ممتثلة لإرادته الواهنة على رغم كل ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب. وهذا هو السر

الكامن وراء حياة الوالد وابنته. وقد فهم هذا السـر رجل يأتلف في شـخصـه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الإنجيل فتظهر للناس كالفضائل. هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب تخافه الأرواح والأجسـاد وتخر لديه سـاجدة مثلما تنحني رقاب الأنعام أمام الجزار. ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسـه عناصـر المفاسـد والمكاره مثلما تنقلب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف والمسـتنقعات. وليس بعيداً اليوم الذي ينتصـب فيه المطران بملابسـه الحبرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامة عن شـماله رافعاً بيده الأثيمة إكليل الزواج فوق رأسـيهما مقيداً بسـلاسـل التكهين والعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة. جامعاً في قبضة الشـريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية، واضـعاً قلب النهار في صدر الليل. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن عن فارس كرامة وابنته فلا تسـلني أكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت.

وحول صـديقي وجهه ونظر من النافذة إلى الفضـاء كأنه يبحث عن أسرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير.

فقمت إذ ذاك من مكاني، ولما أخذت يده مودعاً قلت له: غداً أزور فارس كرامة قياماً بوعدي له واحتراما للتذكارات التي أبقتها صداقته لوالدي.

فبهت بي الشـــاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد أوحت إليه فكراً جديداً هائلاً، ثم نظر في عيني نظرة طويلة غريبة ـــ نظرة محبة وشفقة وخوف ـ نظرة نبي يرى في أعماق الأرواح ما لا تعرفه الأرواح، ثم ارتشـعت شـفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شـيئاً، فتركته وسـرت نحو الباب بأفكار متضـعضـعة، قبيل أن يلتفت إلى الوراء رأيت عينيه مازالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة ــــ تلك النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفســي من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملأ الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الأرواح بالتفاهم.

في باب الهيكل

وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر إلى أوجه الكتب العابسة، علوت مركبة طالباً منزل فارس كرامة، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوة للتنزه حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسار خبباً على ممر تظلله أشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب.

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الأغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين.

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامة في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي، فهش

متأهلاً وقادني مرحباً إلى داخل الدار، ونظير والد مشتاق أجلسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضي مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي، فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام الأماني التي يترنم بها الفتيان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع.. للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتيان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعة متلونة بألوان قزح، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة.

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترتدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطء. فوقفت ووقف الشيخ قائلاً: هذه ابنتي سلمى. وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله: إن ذاك الصديق القديم الذي حجبته عني الأيام قد عادت فأبانته لي بشخص ابنه، فأنا أراه الآن ولا أراه. فتقدمت الصبية إلي وحدقت إلى عيني كأنها تريد أن تستنطقهما عن حقيقة أمري

وتعلم منهما أسباب مجيئي إلى ذلك المكان، ثم أخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب.

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد أدخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة: كثيراً ما حدثني والدي عن أبيك معيداً على مسمعي حكايات شبابهما، فإن كان والدك قد أسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا.

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال: إن سلمى روحية الميول والمذاهب، فهي ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النفس.

وهكذا عاد فارس كرامة إلى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجد فيَّ سراً سحرياً يرجعه على أجنحة الذكرى إلى ربيع أيامه الغابرة.

كان ذلك الشيخ يحدق إليّ مسترجعاً أشباح شبابه وأنا أتأمله حالماً بمستقبلي. كان ينظر إليّ مثلما تخيم

أغصـــان الشـــجرة العالية المملوءة بمآتي الفصـــول فوق غرســـة صـــغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء. شـجرة مسـنة راسـخة الأعراق قد اختبرت صـيف العمر وشـتاءه ووقفت أمام عواصـف الدهر وأنوائه، وغرسـة ضعيفة لينة لم تر غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر.

أما سـلمى فكانت سـاكتة تنظر إليّ تارة وطوراً إلى أبيها كأنها تقرأ في وجهينا أول فصـــل من رواية الحياة وآخر فصل منها.

قضـــى ذلك النهار متنهداً أنفاســه بين تلك الحدائق والبسـاتين وغابت الشـمس تاركة خيال قبلة صـفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامة يتلو علي أخباره فيذهلني وأنا أترنم أمامه بأغاني شـــبيبتي فأطربه، وســـلمى جالســـة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرك وتســـمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت أن للجمال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والمقاطع التي تحدثها الشـفاه والألسـنة، لغة خالدة تضـم إليها جميع أنغام البشـــر وتجعلها شـــعوراً صـــامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي إلى أعماقها

وتجعلها سكوتاً أبدياً. إن الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته، أما أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع. هو سيال خافٍ عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور. الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً - هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول ـ ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة أمام الشمس أم هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً وأشباحاً لا حقيقة لها؟ هل أعمتني الفتوة فتوهمت الأشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقة في قدها، أم هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحبّ وأحزانه؟ لا أدري ولكنني أعلم أنني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة. عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل أن تبتدئ الدهور. ومن تلك العاطفة قد

تولدت سعادتي وتعاستي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة تلك الروح.

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة، وهكذا شاءت السماء وأعتقتني على حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حراً في موكب المحبة، فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سامٍ لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواميس الطبيعة وأحكامها.

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامة وقال بصوت تعانقه رنة الإخلاص: الآن وقد عرفت الطريق إلى هذا المنزل يجب أن تأتي إليه شاعراً بالثقة التي تقودك إلى بيت أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك ـ أليس كذلك يا سلمى.

فحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إلي نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه.

إن تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامة هي النغمة الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة. هي استهلال الأغنية السماوية التي انتهت بالندب والرثاء.

هي القوة التي شـــجعت روحينـا فـاقتربنـا من النور والنار. هي الإناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم.

وخرجـت فشـــيعني الشـــيخ إلى أطراف الحـديقـة، فودعتهمـا وقلبي يخفق في داخلي مثلمـا ترتعش شـــفتـا العطشان بملامسة حافة الكأس.

الشعلة البيضاء

وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامة وألتقي سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها، معجباً بمواهبها، مصغياً لسكينة كآبتها، شاعراً بوجود أيدٍ خفية تجتذبني إليها. فكل زيارة كانت تبين لي معنى جديداً من معاني جمالها، وسراً علوياً من أسرار روحها، حتى أصبحت أمام عيني كتاباً أقرأ سطوره وأستظهر آياته وأترنم بنعمته ولا أستطيع الوصول إلى نهايته.

إن المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس.

وسلمى كرامة كانت جميلة النفس والجسد، فكيف أصفها لمن لا يعرفها؟ هل يستطيع الجالس في ظل

أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل، وهمس الوردة، وتنهيدة الغدير؟ أيقدر الأسير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوب نسمات الفجر؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام؟ وهل يمنعني التهيب عن إظهار خيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية إذا كنت لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب؟ إن الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المنّ والسلوى.

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة، وكانت حركاتها بطيئة متوازية أشبه شيء بمقاطيع الألحان الأصفهانية، وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهدات، فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء. ووجهها ـــ ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفاف؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سراً من أسرار النفس وتذكر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد

عن هذا العالم!.

إن الجمـال في وجـه سـلمى لم يكن منطبقـاً على المقاييس التي وضـعها البشـر للجمال، بل كان غريباً كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسـخ بريشـة المصـور، ولا يتجسـم برخام الحفار. جمال سـلمى لم يكن في شـعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطـة بـه. ولم يكن في عينيهـا الكبيرتين بـل في النور المنبعث منهما. ولا في شـفتيها الورديتين بل في الحلاوة السائلة عليهما. ولا في عنقها العاجي بل في كيفية انحنائه قليلاً إلى الأمام. جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشـبيهة بشـعلة بيضـاء متقدة سـابحة بين الأرض واللا نهـايـة. جمـال سـلمى كـان نوعـاً من ذلك النبوغ الشـعري الذي نشـاهد أشباحه في القصـائد السـامية والرسـوم والأنغام الخالدة. وأصـحاب النبوغ تعسـاء مهما تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع.

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام، لكن سكوتها كان موسـيقياً ينتقل بجليسـها إلى مسـارح الأحلام البعيدة، ويجعله يصغي لنبضات قلبه، ويرى

أخيلة أفكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه.

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة، وتظهر أشعة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح. وقد أوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه، ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره. فكأن الآلهة قد جعلت كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير إنساناً كاملاً، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه.

إن النفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنهما - فالقلوب التي تدنيها أوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح وبهرجتها. فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور. والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً.

العاصفة

وبعد أيام دعاني فارس كرامة إلى تناول العشـــاء في منزله، فذهبت ونفســي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً، ذلك الخبز الســـحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وســـافو اليونانية فالتهبت أحشـــاؤهم وذابت قلوبهم، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلاً للنفوس الحســـاســـة المســـتيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره.

ولما بلغت المنزل وجدت ســلمى جالســة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شـــجرة فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها

جلوس مجوســـي متهيب أمام النار المقدســـة، ولما حاولت الكلام وجدت لســـاني منعقداً وشـــفتي جامدتين فاستأنست بالسكوت، لأن الشعور العميق غير المتناهي يفقد شـــيئاً من خاصـــته المعنوية عندما يتجســـم بالألفاظ المحدودة، ولكنني شـــعرت بأن ســـلمى كانت تســـمع في السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عيني أشباح نفسي المرتعشة.

وبعد هنيهة خرج فارس كرامة إلى الحديقة ومشـــى نحونا مرحباً بي كعادته باســـطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك الســـر الخفي الذي يربط روحي بروح ابنته، ثم قال مبتســـماً: هلمّا يا ولديّ إلى العشـــاء فالطعام ينتظرنا. فقمنا وتبعناه وســـلمى تنظر إليّ من وراء أجفان مكحولة بالرقة والانعطاف كأن لفظة " يا ولدي" قد أيقظت في داخلها شـــعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها.

جلسنا إلى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث ــ جلسنا في تلك الغرفة نتلذذ بألوان الطعام الشـــهية وأنواع الخمور المعتقة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد

عن هذا العالم وتحلم بمآتي المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله. ثلاثة أشـــخاص تختلف أفكارهم باختلاف مقاصـــدهم من الحياة وتتفق ســـرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة. ثلاثة من الضـــعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً، وهذه هي المأساة المستتبة على مســرح النفس. شـــيخ جليل شـــريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها ـــــ وصبية في العشرين من عمرها ترى المســتقبل قريباً بعيداً وتحدق إليه لترى ما يخبئ لها من الغبطة والشقاء ـــــ وفتى كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير سابحاً في فضـــاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يســـتطيع النهوض لضـعفه. ثلاثة جالسـون حول مائدة أنيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه ســـكينة الدجى وتحدق إليه عيون الســماء. ثلاثة يأكلون ويشــربون وفي أعماق صـــحونهم وكؤوسهم قد أخفى القدر المرارة والأشواك.

ولم ننتهِ من العشاء حتى دخلت علينا إحدى الخادمات وخاطبت فارس كرامة قائلة: في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي.

فســـألها: من هو هذا الرجل؟ فأجابت: أظنه خادم المطران يا ســيدي. فســكت دقيقة وحدق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر إلى وجه الســماء ليرى ما تخبئه من الأسرار. ثم التفت نحو الخادمة وقال: دعيه يدخل.

فعادت الخادمة، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشــة وشــارب معقوف الطرفين، فســلم منحنياً، وخاطب فارس كرامة قائلاً قد بعثني ســيادة المطران بمركبته الخصوصية لأطلب إليك أن تتكرم بالذهاب إليه، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية.

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير. ثم اقترب مني وقال بصــوت تســاوره الرقة والحلاوة: أرجو أن أعود وألقاك ههنا، فسلمى ستجد بك مؤنساً يبعد بأحاديثه وحشة الليل، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد. ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً: أليس كذلك يا سلمى؟

فحنت الصــبية رأســها وقد توردت وجنتاها قليلاً، وبصــوت يضــارع نغمة الناس رقة قالت: ســوف أجهد النفس لكي أجعل ضيفنا مسروراً يا والدي.

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصـــرها وراء ســـتائر الظلام واضـــمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرتقة سنابك الخيل. ثم جلست قبالتي على مقعد موشى بنسيج الحرير الأخضـــر فبانت بأثوابها الناصـــعة كزنبقة لوت قامته نسمات الصباح على بساط الأعشاب.

كذا شـــاءت الســـماء فخلوت بســـلمى ليلاً في منزل منفرد تحفره الأشـــجار، وتغمره الســـكينة، وتســـير في جوانبه أخيلة الحبّ والطهر والجمال.

ومرت دقائق وكلانا صـــامت حائر مفكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام. ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابة؟ هل هي الأصـــوات والمقاطع الخارجة من الشـــفاه والألســـنة التي تقرب بين القلوب والعقول؟ أفلا يوجد شـــيء أسمى مما تلده الأفواه وأطهر مما تهتز به أوتار الحناجر؟ أليس هي الســـكينة التي تحمل شـــعاع النفس إلى النفس، وتنقل همس القلب إلى القلب؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا

فنسبح في فضاء الروح غير المحدود، مقتربين من الملإِ الأعلى، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق السجون الضيقة، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟

ونظرت سلمى إليّ وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحري: تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل.

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً: أليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة؟ أما الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً. فأجابت: إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحب عن النفس.

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة، ثم حولت عينيها ونظرت نحو النافذة، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً لكل مقطع معنى، راسماً لكل معنى حقيقة، ثم عادت فحدقت إليّ كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من أذني بسحر أجفانها. ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقيها هناك

ملتصقة بقلبي متموجة مع عواطفي إلى آخر الحياة.

كل شـــيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد أو من حاسـة واحدة في داخل الإنسـان. كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة رجل أو عاطفة لطيفة في صـــدر امرأة. الثورات الهائلة التي أجرت الدماء كالســواقي وجعلت الحرية تبعد كالآلهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين ألوف من الرجال. والحروب الموجعة التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد. والتعاليم السامية التي غيرت مسـير الحياة البشـرية كانت ميلاً شـعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه. فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد أوجد مجد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الإسكندرية.

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد أو إلى الجنون. نظرة واحـدة من أطراف أجفـان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم. كلمة واحدة تخرج من

بين شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى.. كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامة في تلك الليلة الهادئة أوقفتني بين ماضي ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء. كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب حيث الحياة والموت.

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة تتمايل بين أقدامنا، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة إلينا من وراء ازرقاق السماء.

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك الروابي والشواطئ، فظهرت القرى على أكتاف الأودية كأنه قد انبثقت من اللاشيء، وبأن لبنان جميعه من تحت الأشعة الفضية كأنه فتى متكئ على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي أعضاءه ولا يخفيها.

لبنان عند شـعراء الغرب مكان خيالي قد اضـمحلت حقيقته بذهاب داود وسـليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسـقوط آدم وحواء. هو لفظة شـعرية لا اسـم جبل ـ لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتسـتحضـر إلى الفكر رسـوم غابـات من الأرز يفوح منهـا العطر والبخور، وأبراج من النحـاس والرخـام تتعـالى بـالمجد والعظمـة، وأسـراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية. وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شـعري خيالي منتصـب كالحلم بين اليقظة واليقظة. كذا تتغير الأشـياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا، وهكذا نتوهم الأشـياء متشـحة بالسـحر والجمال عندما لا يكون السـحر والجمال إلا في نفوسنا.

والتفتـت إليّ سـلمى وقـد غمر نور القمر وجههـا وعنقها ومعصـميها فبانت كتمثال من العاج نحتته أصـابع متعبد لعشتروت ربة الحسن والمحبة: لماذا لا تتكلم؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي حياتك؟

فنظرت إلى عينيهـا المنيرتين، ومثـل أخرس فـاجـأ النطق شـفتيه أجبتها قائلاً: ألم تسـمعيني متكلماً مذ جئت إلى هذا المكان؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ

خرجنا إلى هذه الحديقة؟ إن نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي.

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع: قد سمعتك.. نعم سمعتك. سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من أحشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار.

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير وجودها: وأنا قد سمعتك يا سلمى ـــ سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس الأرض.

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائلة: قد عرفت الآن أنه يوجد شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت والزمن. وقد عرفت الآن ما لم أكن أعرفه بالأمس ولا أحلم به.

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامة أعزّ من الصديق وأقرب من الأخت وأحبّ من الحبيبة. صارت

فكراً ســـامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً يجاور نفسي.

ما أجهل الناس الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشــرة الطويلة والمرافقة المســتمرة. إن المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل.

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء، ثم قالت: لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي، أما الآن فقد شــعرت بوجود شــيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية. قد شــعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة: عاطفة قوية مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً.

فأجبتها: أليســت هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صــدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يســير القمر حول الأرض، والأرض حول الشــمس والشمس وما يحيط بها حول الله؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري

وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات النـدى على أطراف أوراق النرجس، ثم قالت: منْ من البشر يصدق حكايتنا؟ من منهم يصدق أننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشـك واليقين؟ من منهم يعتقد أن نيسـان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة.

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني، ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضـلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري. ثم أجبتها قائلاً: إن البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصـول، ولكن هل هو نيسـان الذي جمعنا لأول مرة، وهل هي هذه الساعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة؟ أما جمعت روحينا قبضة الله قبل أن تصيرنا الولادة أسيري الأيام والليالي؟ إن حياة الإنسان يا سلمى لا تبتدئ في الرحم كما أنها لا تنتهي أمام القبر، وهذا الفضاء الواسع المملوء بـأشـعـة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم.

ورفعت سـلمى يدها بلطف عن رأسـي تاركة بين مغارس الشعر تموجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نمواً وحراكاً، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتي الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرسـاء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الإحساس وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس الإلهية من الطهر.

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة، تسـاورنا سـكينة الليل وتغمرنا أشـعة القمر وتحيط بنا الأشـجار والرياحين، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيه الإنسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منا مسرعة، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الأحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيره بين الحيرة والشقاء، فعرفنا أن الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فسرنا بين الأشجار ننتظر وصـوله. وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامة وسـار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو سـلمى ووضع كلتا يديه على

كتفيها وحدق إلى وجهها طويلاً كأنه يخاف أن تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين، ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق: عما قريب يا سلمى، عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر. عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريباً عنك. لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى، فلتباركك السماء وتحرسك!.

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها، ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً بآلامه، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة: ماذا تقول؟ ماذا تعني؟ إلى أين تريد أن تبعث بي؟

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره. وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة: قد فهمت

الآن.. قد عرفت كل شيء.. إن المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين، فهل هذه هي إرادتك يا ولدي؟.

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة، ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة، فبقيت أنا واقفاً بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف، ثم تبعتهما إلى القاعة. وكيلا أظهر بمظهر طفيلي يميل إلى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً ونظرت إلى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة الفلك، ثم خرجت دون أن يشعرا بخروجي، ولكنني ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً، فالتفت وإذا به يتبعني، فعدت إلى لقائه، ولما دنوت منه أمسك بيدي وقال بصوت مرتعش: سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموع، ولكنك سوف تجيء إلي دائماً، أليس كذلك، ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة المحزنة؟ إن الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما أن الصباح لا يلتقي بالمساء، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكرني بأيام الصبا التي

صرفتها بقرب أبيك وتعيد على مسمعي أخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها، أليس كذلك، ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع، ولما أخذت يده وهززتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع السخية قد تساقطت على يدي من أجفانه، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث إلى شفتي ثم تعود كالغصات إلى أعماق قلبي. ولما رفعت رأسي ورأى أن دموعه قد استدرت الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل: مساء الخير.. مساء الخير يا بني.

إن دمعة واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان.

إن دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة، أما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق، هي بقية الحياة في الأجساد

الواهنة. الدموع في أجفان الشــبيبة كقطرات الندى على أوراق الوردة، أما الدموع على وجنة الشــيخوخة فأشــبه بأوراق الخريف المصــفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة.

واختفى فـارس كرامـة وراء مصــراعي البـاب وخرجت أنا من تلك الحديقة وصــوت ســلمى يتموج في أذني، وجمالها يســير كالخيال أمام عيني، ودموع والدها تجف ببطء على يدي. خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس، ولكن حواء هـذا القلـب لم تكن بجـانبي لتجعل العالم كله فردوسـاً.. خرجت شـاعراً بأن تلك الليلة التي ولـدت فيها ثـانيـة هي الليلـة التي لمحت فيها وجـه الموت لأول مرة.

كـذا تحيي الشــمس الحقول بحرارتهـا، وبحرارتهـا تميتها.

بحيرة النار

كل ما يفعله الإنسان سـراً في ظلمة الليل يظهره الإنسان علناً في نور النهار. الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشوارع.

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامة، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة حتى بلغت مسمعي.

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامة في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب.

كان فارس كرامة رجلاً غنياً ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه، لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والأشراف.

إن رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله. إن مجد الأمير ينتقل بالإرث إلى ابنه البكر بعد موته، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الإخوة وأبناء الإخوة في حياته. وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والإمام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة.

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخية. وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك؟ أي رجل لا ترتعش أعماق

نفسه بالغصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة؟ إن كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً ـــ أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه فعرف خشونته وطبعه وانحطاط أخلاقه، ولكن أي مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين؟ أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع؟ وهب أن ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظنون والتآويل، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ الشفاه والألسنة؟ أوليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامة وقادها عبدة ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات، وهكذا

سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة الحب البيضاء في فضاء تملؤه أشعة القمر وتعطره رائحة الأزاهر.

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبةً لشقاء البنين. تلك الخزائن الواسعة التي يملؤها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة. ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب. وسلمى كرامة هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأماني العريس. فلو لم يكن فارس كرامة رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس.

مر أسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي أغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكيان. حب علوي لا يعرف الحسد لأنه غني، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح. ميل قوي يغمر النفس بالقناعة. مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء. عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره. فتون

جعلني أرى الأرض نعيماً والعمر حلماً جميلاً. فكنت أسـير صـباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود، وأجلس على شـاطئ البحر وأسـمع من أمواجه أغاني الأبدية، وأمشـي في شـوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشـتغلين محاسـن الحياة وبهجة العمران.

تلك الأيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق لي منها سوى الذكرى الأليمة. فالعين التي كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق إلى غير غضب العواصف ويأس الشتاء. والأذن التي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغي لغير أنّة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشـعر بغير شـقاء الفقر وتعاسـة السـاقطين، فما أحلى أيام الحب وما أعذب أحلامها وما أمر ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها!.

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سـرت مسـاء إلى منزل سـلمى كرامة، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية

ويرجع القلب خاشــعاً، ولما بلغته ودخلت إلى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء إلى عالم ســحري خالٍ من العراك والجهاد. ومثل متصــوف جذبته الســماء إلى مســارح الرؤيا وجدتني ســائراً بين تلك الأشــجار المحتبكة المتعانقة. حتى إذا ما اقتربت من باب الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء ســعادتي وشــقائي، فدنوت منها صــامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل قدومي. ولما جلسـت بجانبها حدقت إلى عينيّ دقيقة وتنهدت تنهيدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت إلى الشــفق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار. وبعد هنيهة مملوءة بتلك السكينة السحرية التي تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير المنظورة، حولت ســلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد مرتعشــة باردة، وبصــوت يشــابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام قالت:

انظر إلى وجهي يا صــديقي، انظر إلى وجهي جيداً وتأمله طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد أن تفهمه مني بالكلام.. انظر إلى وجهي يا حبيبي.. انظر جيداً يا أخي.

فنظرت إلى وجهها، نظرت طويلاً، فرأيت تلك الأجفان التي كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم. رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط. رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة أقاح تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن. رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى إلى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري إلا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة. إن الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. أما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الأعضاء. إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف

بلورها عن لون الخمر. فسلمى كرامة كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس. كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن.. ولا تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت محدقاً إلى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً مفكراً شاعراً متألماً معها ولها، حتى أحسست أن الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين إلى أعماقي، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي. ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي. تعال نحاول تصوير المستقبل قبل أن يحمل علينا بمخاوفه وأهواله. لقد ذهب والدي إلى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر. قد ذهب الرجل الذي اختارته لي السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية. ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي

رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً. فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر، وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة، بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب. وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي، وأراك جالساً بجانبي وأشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامئ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف. فما أعظم هذه الليلة وما أعمق أسرارها!.

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عنق حبنا ليميته في طفوليته: سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه أو يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه.

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية: لا، لا يا صديقي، فليبق هذا الطائر حياً، ليبق هذا البلبل

مغرداً حتى المســـاء، حتى ينتهي الربيع، حتى ينتهي العالم، حتى تنتهي الدهور، لا تخرسه لأن صوته يحييني، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي.

فهمست متنهداً: الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته.

فأجابت والكلام يتدفق بســـرعة من بين شـــفتيها المرتعشـــتين: إن ظمأ الروح أعظم من ارتواء المادة، وخوف النفس أحب من طمأنينة الجســد.. ولكن اســمع يا حبيبي، اســمعني جيداً، أنا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً. أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة الســقوط. أنا جارية أنزلني مال والدي إلى ســاحة النخاسـين فابتاعني رجل من بين الرجال. أنا لا أحب هذا الرجل لأنني أجهله، وأنت تعلم أن المحبة والجهالة لا تلتقيان، ولكنني سوف أتعلم محبته. سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً. سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي. أما أنت فلم تزل في ربيع العمر، أمامك الحياة طريقاً واسعة مفروشة بالأزهار والرياحين. سـوف تخرج إلى سـاحة العالم حاملاً قلبك مشـعلاً متقداً. سوف تفكر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل.

سـوف تكتب اسـمك على وجه الحياة لأنك رجل. سـوف تعيش سـيداً، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشـرى. سوف تقترن بالصـبية التي تختارها نفسك من بين الصـبايا فتسـكنها صـدرك قبل أن تسـكنها منزلك، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيام والليالي.

وسـكتت دقيقة كيما تسـترجع أنفاسـها، ثم زادت بصـوت تتابعه الغصّات، ولكن أههنا تفرقنا سـبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسـير بي إلى واجبات المرأة؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة؟ أهكذا تبتلع اللجة نغمة الشـحرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسـحق الأقدام كأس الخمر؟ أباطلاً أوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلاً ضـمنا الروح في ظلال هذه الياسـمينة؟ هل تسـرعنا بالصـعود نحو الكواكب فكلت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية؟ هل فاجأنا الحبّ نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا، أم هيجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شـديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي؟ لم نخالف وصـية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة؟ لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى

الجحيم! لا لا وألف لا ولا. إن الدقائق التي جمعتنا هي أعظم من الأجيال، والشـــعاع الذي أنار نفســينا هو أقوى من الظلام، فإن فرقتنا العاصــفة على وجه هذا البحر الغضــوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشــاطئ الهادئ، وإن قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا.

إن قلــب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصــول. قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت. قلب المرأة يشـابه البرية التي يتخذها الإنسـان سـاحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشــجارها ويحرق أعشــابها ويلطخ صــخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم، ولكنها تبقى هادئة سـاكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً إلى نهاية الدهور.. والآن قضــيَ الأمر فماذا نفعل؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي؟ هل نحســب الحب ضــيفاً غريباً أتى به المســاء وأبعده الصباح؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة؟ أنحسـب هذا الأسبوع سـاعة سكر ما لبثت أن قضـت بالصـحو والانتباه؟.. ارفع رأسـك لأرى عينيك يا حبيبي. افتح شــفتيك لأســمع صــوتك. تكلم، أخبرني، حدثني، هل تذكر بعد أن تغرق العاصفة

سـفينتي أيامنا؟ هل تسـمع حفيف أجنحتي في الليل؟ هل تشـعر بأنفاسـي متموجة على وجهك وعنقك؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضـمحلاً مع ضـباب الصـباح؟ قل لي يا حبيبي، قل لي ماذا تكون لي بعد أن كنت نوراً لعينني ونغمة لأذني وجناحاً لروحي، ماذا تكون؟

فأجبتها وحبات قلبي تذوب في عيني: سـأكون لك يا سلمى مثلما تريدني أن أكون.

فقالت: أريدك أن تحبني. أريدك أن تحبّني إلى نهاية أيامي. أريدك أن تحبني مثلما يحب الشـاعر أفكاره المحزنة. أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسـافر حوض ماء هادئ رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشـرب من مائه. وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشـائها قبل أن يرى النور. وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف بسـجين مات قبل أن يبلغه عفوه. أريدك أن تكون لي أخاً وصـديقاً ورفيقاً. أريدك أن تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده، لأنني عما قريب

سأتركه وأصير غريبة عنه.

فأجبتها: سأفعل كل ذلك يا سلمى. سوف أجعل روحي غلافاً لروحك، وقلبي بيتاً لجمالك، وصدري قبراً لأحزانك. سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع. سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس. سوف أترنم باسمك مثلما يترنم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى. سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطئ لحكاية الأمواج.. سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية، والملك المخلوع أيام عزه ومجده، والأسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة. سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار السنابل وغلة البيادر، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة.

كنتُ أتكلم وسلمى تنظر إلى أعماق الليل وتتأوّه بين الآونة والأخرى، ونبضات قلبها تتسارع وتتمايل كأنها أمواج بحر بين صعود وهبوط. ثم قالت: غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حلماً، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جداول الأحلام؟.

فأجبتها قائلاً: غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال. أنت إلى منزل رجل يسعد بجمالك وطهر نفسك، وأنا إلى مكامن أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني بأشباحها. أنتِ إلى الحياة وأنا إلى النزع. أنتِ إلى الأنس والألفة وأنا إلى الوحشة والانفراد. ولكنني سأرفع في وادي ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده. سأتخذ الحب سميراً وأسمعه منشداً وأشربه خمراً وألبسه ثوباً. عند الفجر سينبهني الحب من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة. وعند الظهيرة سيقودني إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس. وفي المساء سيوقفني أمام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة سابحة في الفضاء. وفي الليل سيعانقني فأنام حالماً بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء. وفي الربيع سأمشي والحب جنباً لجنب، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار أقدام الحياة المخططة بالبنفسج والأقحوان، شاربين بقايا الأمطار بكؤوس النرجس والزنبق. وفي الصيف سأتكئ والحب ساندين رأسينا إلى أغمار القش مفترشين

الأعشـــاب ملتحفين الســـماء ســـاهرين مع القمر والنجوم. وفي الخريف ســـأذهـب والحـب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصـر ناظرين إلى الأشـجار وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأســـراب الطيور الراحلة إلى الساحل. وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تاليين حكايات الأجيال مرددين أخبار الأمم والشعوب. وفي أيام الشبيبة سيكون لي الحب مهذباً وفي الكهولة عضداً وفي الشيخوخة مؤنساً. سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر، إلى أن يجيء الموت، إلى أن تجمعني بك قبضـــة الله.

كانت الألفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها شـــعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضـــمحل في زوايا تلك الحديقة، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام.

إن الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يســـتطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم الســـحري الذي طافت فيه روحي وروح ســـلمى في تلك الســـاعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها. إن الذين لم يتخذهم الحب

أتباعاً لا يســـمعون الحب متكلماً، فهذه الحكاية لم تكتب لهم، فهم وإن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً. لكن أي بشري لم يرشف من خمرة الحب في إحدى كاساته؟ أية نفس لم تقف متهيبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها؟ وأي ساقية تضل طريقها ولا تذهب إلى البحر؟.

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الأمام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من الشكوى والقنوط والألم، ثم صرخت قائلة: ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحقت غضبك؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ أنت قوي يا رب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ أنت عظيم وهي تدب حول عرشك فلماذا

تسـحقها بقدميك؟ أنت عاصـفة شـديدة وهي كالغبار أمام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج؟ أنت جبار وهي بائسـة فلماذا تحاربها؟ أنت بصـير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ أنت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها؟ بيمينك ترفعها إليك وبشـــمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة لا تدري أنى ترفعها وكيف تدفعها؟ في فمها تنفخ نســـمة الحياة وفي قلبها تزرع بزور الموت. على ســـبل السعادة تسيرها راجلة ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها. في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شـــفتيها بالحزن وتربط لســـانها بالكآبة. بأصـــابعك الخفية تمنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الأوجاع حول ملذاتها. في مضـــجعها تخفي الراحة والســـلام وبجانب مضـجعها تقيم المخاوف والمتاعب. بإرادتك تحيي ميولها ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها. بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة. بشـريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضـائك تجعل جسـدها بعلاً للضـعف والهوان. أنت تسـقيها الحياة بكأس الموت والموت بكـأس الحيـاة. أنـت تطهرهـا بـدموعهـا وبدموعها تذيبها. أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ

حفنة الرجل من حبات صـــدرها. أنت أنت يا رب قد فتحـت عيني بـالمحبـة وبـالمحبـة أعميتني. أنـت قبلتني بشـــفتيك وبيدك القوية صـــفعتني. أنت زرعت في قلبي وردة بيضـاء وحول هذه الوردة أنبت الأشـواك والحسك. أنت أوثقت حاضـــري بروح فتى أحبه ويجســد رجل لا أعرفـه. قيـدت أيـامي فســـاعدني لأكون قويـة في هـذا الصـــراع المميت وأســـعفني لأبقى أمينة وطاهرة حتى الموت.. لتكن مشـــيئتك يا رب. ليكن اســـمك مباركاً إلى النهاية.

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكلم، ثم حنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضـــيض ليجف ويندثر تحت أقدام الدهر. فأخذت يدها المثلجة بيدي الملتهبة وقلبت أصـــابعها بأجفاني وشـفتي، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحرى منها بالتعزية والشـــفقة، فبقيت صـــامتاً حائراً متأملاً شـــاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي، مصـغياً لأنه قلبي في داخلي، خائفاً من نفسي على نفسي.

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة،

لأن اللوعة إذا عظمت تصير خرساء، فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب. ولم يعد أحدنا يريد أن يســمع الآخر متكلماً، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها.

انتصــف الليل ونمت رهبة الســكوت وطلع القمر ناقصــاً من وراء صــنين وبان بين النجوم كوجه ميت شــاحب غارق في المسـاند السـوداء بين شـموع ضـئيلة تحيط بنعشــه. وظهر لبنان كشــيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر أجفانه الرقاد فبات يسـاهر الـدجى ويترقـب الفجر كملـك مخلوع جـالس على رمـاد عرشه بين خرائب قصره. إن الجبال والأشجار والأنـهار تتبدل هيئاتـها ومظاهرها بتقلب الـحالات والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجـه الإنســان بتغير أفكـاره وعواطفـه، فشــجرة الحور التي تتعـالى في النهـار كعروس جميلـة يلاعب النســيم أثوابها تظهر في المســاء كعمود دخان يتصـاعد نحو اللاشـيء. والصـخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى ويلتحف الفضاء. والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللّجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود

نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى. ولبنان الذي ظهر منذ أسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر.

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين، هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا. هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً. ولما أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتي متبركاً دنت مني ولثمت مفرق شعري. ثم عادت فارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها وهمست ببطء: أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة. وسرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطريق تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين

الغصـــون كأنها ســـهام دقيقة تريشـــها أرواح الجان الســابحة بالفضــاء نحو صــدري، والســكينة العميقة تخيم علي كأنها أكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدي.

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سـر في النفس قد صـــار قبيحاً رهيباً هائلاً، فالنور المعنوي الذي أراني جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها وتســتر نفســي بدخانها. والنغمة التي كانت تضــم إليها أصــوات المخلوقات وتجعلها نشـيداً علوياً قد اسـتحالت في تلك السـاعة إلى ضـجيج أروع من زمجرة الأسد وأعمق من صراخ الهاوية.

بلغت غرفتي وارتميت على فراشـــي كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم في قلبه، وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات سلمى: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

أمام عرش الموت

إنما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضـــحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصــبايا، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخســرون دائماً، أما الصــبايا المتنقلات كالســلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن، ونظير الأمتعة العتيقة يصــير نصــيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء.

إن المدنية الحاضــرة قد أنمت مدارك المرأة قليلاً ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل. كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة. كانت بالأمس عمياء تســير في نور النهار فأصــبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل. كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها. فهل يجيء يوم

يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة، والتفنن بالفضيلة، وضعف الجسد بقوة النفس؟ أنا من القائلين إن الارتقاء الروحي سنة في البشر، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة، فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذئاب. ففي هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة ـــ في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الأجيال الغابرة وبزور الأجيال الآتية ـــ في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل. وسلمى كرامة كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء.

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معاً في منزل فخم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء، وبقي فارس كرامة وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه. ومضت أيام العرس وانقضت ليالي

الأفراح، ومر الشـهر الذي يدعوه الناس عسـلاً تاركاً وراءه شـــهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جمـاجم القتلى في البريـة البعيـدة.. إن بهرجـة الأعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر إلى مـا وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى إلى أعماق اليم، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشـــاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

وذهب الربيع وتلاه الصـيف وجاء الخريف ومحبتي لســلمى تتدرج من شـــغف فتى في صـــباح العمر بامرأة حسـناء إلى نوع من تلك العبادة الخرسـاء التي يشـعر بها الصبي اليتيم نحو روح أمه الساكنة في الأبدية، فالصبابة التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسـها، والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولهاً يسـتقطر الدم من قلبي، وأنّة الحنين التي كانت تملأ ضــلوعي أصـبحت صــلاة عميقة تقدمها روحي في السـكينة أمام السـماء مسـتمدة السـعادة لسـلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها، ولكن باطلاً كنت أشـفق وأبتهل وأصــلي لأن تعاســة ســلمى كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت. أما بعلها فكان من

أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم، وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم. وباطلاً كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامة لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلاً إلى ما بقي من ثروته.

كان منصور بلك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب، وكانت أخلاقه كأخلاقه، ونفسه صورة مصغرة لنفسه، ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط. كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره. أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة. كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد.

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ

المؤمنين بما لا يتعظ به ويصــرف أيام الأسـبوع مشتغلاً بسياسة البلاد، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة. كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل، أما منصــور بك فكان محتالاً يمشــي بشـجاعة في نور النهار.

كذا تبيد الشـعوب بين اللصــوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين، وهكذا تســتسـلم الأمم الشــرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاســدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضــيض فيمر الدهر ويسـحقها بأقدامه مثلما تسـحق مطارق الحديد آنية الفخار..

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل الصفحات بالكلام عن أمم بائسـة وأنا قد خصصــتها لتدوين حكاية امرأة تاعسـة وتصـوير خيالات قلب وجيع لم يلمســه الحب بأفراحه حتى صــفعه بأحزانه؟.. لماذا تراود الدموع أجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيام امرأة ضــعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت، ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة

المظلومة؟ أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها؟ أوليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب؟ إن المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً إذ لم يكن زيته شحيحاً؟.

مضت أيام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنوار زبد البحر، وجاء الشتاء باكياً منتحباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الأرض.

إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ أو يموت.

فذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامة، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلمّعة أوراقها الرصاصية بقطرات المطر، متنحياً

عن الطريق العمومية حيث تزعج ضـــجة المركبات سكينة الفضاء.

بلغت منزل الشـــيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشــه مضـنـي الجسم، شـاحب الوجه، أصـفر اللون، قد غرقـت عينـاه تحـت حـاجبيـه فبـانتـا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشـباح السـقم والألم، فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البشــاشـــة والانبســاط قد تقلصـــت واكفهرت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سـطوراً غريبة ملتبسـة. واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام أصـــابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة.

ولما دنوت منه سـائلاً عن حاله حول وجهه المهزول نحوي وظهر على شـــفتيه المرتجفتين خيال ابتســـامة محزنة، وبصـــوت ضـــعيف خافت خلته آتياً من وراء الجـدران قـال: اذهـب، اذهـب يـا ابني إلى تلـك الغرفـة وامسح دموع سلمى وسكن روعها ثم عد بها إلي لتجلس بجانب فراشي.

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على

مقعد وقد غمرت رأســـها بزنديها وغرَّقت وجهها بالمســـاند وأمســـكت أنفاســـها كيلا يســـمع والدها نحيبها. فاقتربتُ منها ببطء ولفظت اســـمها بصـــوت أقرب إلى التنهد منه إلى الهمس، فتحركت مضـــطربة كنائم تراوده الأحلام المخيفة ثم اســـتوت على مقعدها ونظرت إلي بعينين شـــاخصـــتين جامدتين كأنها ترى شـــبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك المكان.

وبعد ســـكوت عميق أرجعنا بتأثيراته الســـحرية إلى تلك الســـاعات التي ســـكرنا فيها من خمرة الآلهة مســـحت ســـلمى دموعها بأطراف أناملها وقالت متحســـرة: أرأيت كيف تبدلت الأيام؟ أرأيت كيف أضـــلنا الدهر فســـرنا مســـرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضـــة الحب، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشـــتاء أمام عرش الموت، فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل.

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصـــات أواخرها ثم عادت فســـترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضـــي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ أن تراها. فوضعت يدي

على شـعرها قائلاً: تعالي يا سـلمى، تعالي ننتصـب كالأبراج أمام الزوبعة. هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا، فإن صُرعنا نموت كالشـهداء وإن تغلبنا نعيش كالأبطال.. إن عذاب النفس بثباتها أمام المصـاعب والمتاعب لهو أشـرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة. فالفراشـة التي تظل مرفرفة حول السـراج حتى تحترق هي أسـمى من الخلد الذي يعيش براحة وسـلامة في نفقه المظلم. والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسـان.. هلمي نسـر يا سـلمى بقدم ثـابتـة على هذه الطريق الوعرة رافعين أعيننـا نحو الشـمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصـخور، والأفاعي المنسـابة بين الأشـواك، فإن أوقفنا الخوف في منتصف الطريق أسمعتنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسـخرية، وإن بلغنا قمة الجبل بشـجاعة تترنم معنا أرواح الفضاء بأنشودة النصر والاستظهار.. خففي عنك يا سـلمى وجففي دموعك وأخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لأن حياته من حياتك وشفاءه بابتسامتك.

فنظرت إليَّ نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثم قالت: أتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير؟ أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء؟

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس إلى غرفة والدها. جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة، وكل منهما شاعر بلوعة الآخر، عالم بضعفه، سامع غصات قلبه، فكانا مثل قوتين متضارعتين يفني بعضهما بعضاً في السكينة. والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته، وابنة محبة تذبل متوجعة بعلة والدها. نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت، وأنا بينهما أتحمل ما بي وأقاسي ما بهما. ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم: شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدهر.

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة

نحو سلمى، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرأفة وكل ما في صـــدر العليل من الســقم والألم قال: ضعي يدك في يدي يا سلمى.

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلاً: لقد شــبعت من الســنين يا ولدي، قد عشــت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصـــول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام والليالي، قد لاحقت الفراش صـــبياً وعانقت الحب فتى وجمعت المال كهلاً، وكنت في جميع هذه الأدوار ســعيداً مغتبطاً. فقدت أمك يا ســلمى قبل أن تبلغي الثالثة ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً. فكنت تنمين بســـرعة نمو الهلال، وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشـــعة النجوم في حوض ماء هادئ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلي الذهبية من وراء النقاب الرقيق، فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة.. والآن قد صـــرت شـــيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة، وافرحي لأنني ســـأبقى بك حياً بعد موتي. إن ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً أو بعده، لأن أيامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدد أمام وجه

الشمس فإن أسرعت بي الساعات إلى الأبدية فلأنها علمت أن روحي قد اشتاقت إلى لقاء أمك.

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء، ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من أجفان الأطفال، ثم مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها إطار من الذهب قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاه، ثم قال دون أن يحول عينيه عن الرسم: اقتربي يا سلمى، اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك. تعالي وانظري ظلها على صفحة من الورق.

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظريها والرسم الضئيل، وبعد أن حدقت إليه طويلاً كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفتيها وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة: يا أماه. يا أماه. يا أماه! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد أن تبث فيه الحياة بأنفاسها الحارة.

إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة "الأم"،

وأجمل مناداة هي: يا أمي، كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه.

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي، وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها. والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبزور الحية. وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة.

وسلمى كرامة لم تكن تعرف أمها لأنها ماتت وهي طفلة، وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها: يا أماه، قسر إرادتها، لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا مثلما

تختبئ النواة في قلب الأرض، وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي والممطر.

كانت سلمى تحدق إلى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه إلى صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها، حتى إذا ما هوت الحياة في جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير أبيها، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلاً: قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق، فأصغي إلي لأسمعك أقوالها.

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان، ونظرت إليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت إلى أعين محدقة وآذان واعية.

فقال والدها: كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلد، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتيها وقالت: قد مات والدي يا فارس وأنت باق لي وهذه هي تعزيتي. إن

القلب بعواطفه المتشـــعبة يماثل الأرزة بأغصــــانها المتفرقة، فإذا ما فقدت شـــجرة الأرز غصــــناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية إلى الغصــــن المقطوع. هذا ما قالته والدتك يا ســلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عندما يأخذ الموت جســدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظل الله.

فأجابت سـلمى متفجعة: فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضـــل أمين، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأســـها الصـــغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شـبيبتي، فمن أسـتعيض إذا ما ذهبت عني؟

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحوي وأمســكت بيمينها طرف ثوبي ثم قالت: ليس لي غير هذا الصديق يا والدي ولن يبقى لي ســواه إذا ما تركتني، فهل أتعزى به وهو متعذب مثلي؟ هل يتعزى كســير القلب بالقلب الكسير؟ إن الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما أن

الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة. هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه بأشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة. هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً.

كنت أسمع سلمى متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات، أما الشيخ فكان ينظر إليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج أمام الريح، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء: دعيني أذهب بسلام يا ولدي، لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم فلن أحولهما نحو هذه الكهوف. دعيني أطير فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص. قد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني. ها قد طابت الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها. دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى.. قبلي روحي بروحك.. قبليني قبلة رجاء وأمل ولا

تسكبي قطرة مرارة الحزن على جسدي لئلا تمتنع الأعشاب والأزهار عن امتصاص عناصره. ولا تذرفي دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكاً على قبري. ولا ترسمي بزفرات الأسى سطراً على جبهتي لأن نسيم السَّحرَ يمر ويقرؤه فلا يحمل غبار عظامي إلى المروج الخضراء.. قد أحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي قريبة منك لتحميك وترعاك.

والتفت الشيخ إلي وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه، ثم قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه: أما أنت يا ابني فكن أخاً لسلمى مثلما كان والدك لي. كن قريباً منها في ساعات الشدة، وكن صديقاً لها حتى النهاية، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة، بل أتل على مسمعها أحاديث الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى.. قل لأبيك أن يذكرني. سله فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب يحلق بنا إلى الغيوم.. قل له إنني أحببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي..

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جدران

الغرفة، ثم عاد فنظر إلي وإلى سـلمى بوقت واحد وقال همسـاً: لا تدعوا طبيباً ليطيل بمسـاحيقه سـاعات سـجني لأن أيام العبودية قد مضـت فطلبت روحي حرية الفضـاء. ولا تدعوا كاهناً إلى جانب فراشـي لأن تعازيمه لا تكفر عن ذنوبي إن كنت خاطئاً، ولا تسـرع بي إلى الجنة إن كنت باراً، إن إرادة البشر لا تغير مشيئة الله كما أن المنجمين لا يحولون مسـير النجوم. أما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان ما شـاؤوا، فاللجة تنادي اللجة أما السفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل.

عندما انتصـف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامة عينيـه الغـارقتين في ظلمـة النزع، فتحهمـا لآخر مرة، وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضـجعه، ثم حاول الكلام فلم يسـتطع لأن الموت كان قد تشـرب صـوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شـفتيه: ها قد ذهب الليل.. وجاء الصباح.. يا سلمى.. يا.. سلمى..

ثم نكس رأسـه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه وأسلم الروح.

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة

كالثلج، فرفعت رأســـها ونظرت إليه فرأت وجهه مبرقعاً بنقاب الموت، فجمدت الحياة في جســـدها وجفت الدموع في محاجرها، فلم تتحرك ولم تصـــرخ ولم تتأوه، بل بقيت محدقة إليه بعينين جامدتين كعيني التمثال، ثم تراخت أعضـــاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل، وهبطت حتى لمســـت جبهتها الأرض، ثم قالت بهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

مات فارس كرامة وعانقت الأبدية روحه واســترجع التراب جسده، واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أســـيرة تعاســـتها ترى الحياة مأســـاة هائلة تمثلها المخاوف أمام عينيها.

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي، تتنابني الأيام والليالي مثلما تتناب النســـور والعقبان لحمان الفريســـة. فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صـــفحات الكتب لعلني أستأنس بأخيلة الذين طواهم الدهر، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الأسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة، فلم يجدني كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول إخماد النار بالزيت، لأنني لم أكن أرى من

مواكب الأجيال سوى أشباحها السوداء، ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح، فسفر أيوب كان عندي أجمل من مزامير داود، ومراثي أرميا كانت أحب لدي من نشيد سليمان، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام، ورواية هملت أقرب إلى قلبي من كل ما كتبه الإفرنج.

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة، وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة.

بين عشتروت والمسيح

بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف. ومع أن هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات، فقد قل من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبئ وراء ستائر الإهمال، فكأن الإهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين.

والداخل إلى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبينات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها، وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمال

جالســـة على عرش فخم ومن حولها ســبع عذارى عـاريات واقفات بهيئات مختلفة، فالواحدة منهن تحمل مشـــعلاً والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامســة غصـناً من الورد والســادســة إكليلاً من الغار والســابعة قوســاً وســهاماً، وجميعهن ناظرات إلى عشتروت وعلى وجوههن سيماء الخضوع والامتثال.

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يســوع الناصــري مصــلوباً وإلى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان. وهذه الصـــورة البيزنطية الأســلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس أو السادس للمسيح.

وفي الجدار الغربي كوتان مســتديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب.

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ورســـامات قديمة الطراز قد انحجبت بعضـــها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه

قرابين الخمر والعطر والزيت.

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة إلى حالة ومن دين إلى دين، وتستميل الشاعر إلى عالم بعيد عن هذا العالم، وتقنع الفيلسوف بأن الإنسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والأنغام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة وأجمل مشتهياته بعد الموت.

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامة مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين إلى مخيلتنا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور أمام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الأرض فلم يبق منهم سوى اسم

تردده الأيام أمام وجه الأبدية.

كم يصـــعب علي الآن أن أدون بالكلام ذكرى تلك السـاعات التي كانت تجمعني بسـلمى، تلك السـاعات العلوية المكتنفة باللذة والألم، والفرح والحزن، والأمل واليأس، وكل ما يجعل الإنسان إنساناً والحياة لغزاً أبدياً. ولكن كم يصــعب علي أن أذكرها ولا أرسـم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة.

كنّا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مرددين صـدى ماضـينا مستقصيين مآتي حاضرنا خائفين مستقبلنا. ثم نتدرج إلى إظهار ما في أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة، ثم يصبر واحدنا الآخر باسـطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة، فيهدأ روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا، ثم نبتسم متناسيين كل شيء سوى الحب وأفراحه، منصـرفين عن كل أمر إلا النفس وميولها، ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً، ثم تقبل سلمى

مفرق شــعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شــعاعاً، وأقبل أطراف أصــابعها البيضــاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاها باحمرار لطيف يشــابه الأشــعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي. ثم نســكت وننظر طويلاً نحو الشــفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية.

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصــرة على مبادلة العواطف وبث الشــكوى، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا إلى العموميات فنتبادل الآراء والأفكار في شــؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرؤها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية، فتتكلم ســلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد. وإني أذكر قولها مرة: إن الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا أســرار قلبها ومخبآت صــدرها لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشــهوات فلا يرون غير خطوط جسدها، أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا

يجدون فيها غير الضعف والاستسلام.

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل" في قلب هذه الصخرة قد نقشـــت الأجيال رمزين يظهران خلاصـــة ميول المرأة ويستجليان غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن، بين الانعطاف والتضـحية، بين عشـتروت الجالسـة على العرش ومريم الواقفة أمام الصـليب.. إن الرجل يشـتري المجد والعظمـة والشـــهرة ولكن هي المرأة التي تـدفع الثمن.

ولم يدر باجتماعاتنا السـرية أحد سـوى الله وأسـراب العصـــافير المتطايرة بين تلك البســاتين، فســلمى كانت تجيء بمركبتها إلى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينا على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصـــغير فتدخله مســتندة إلى مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً مترقباً مشـــتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش.

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير، لأن النفس إذا تطهرت بالنار واغتســلت بالدموع تترفع عمـا يـدعوه النـاس عيبـاً وعـاراً وتتحرر من عبوديـة الشرائع

والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عروش الآلهة.

إن الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً إلى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة. وقد تعودت بصيرة الإنسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحدق إلى نور الشمس. لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية، بل صارت من الصفات الملازمة للإنسان فلم يعد الناس ينظرون إليها كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم، فإذا ما ظهر بينهم فرد خالٍ منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية.

أما الذين سيعيبون سلمى كرامة محاولين تلويث اسمها لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين. بل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج إلى نور

النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين.

إن السـجين المظلوم الذي يسـتطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً. وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الواسع؟ هل يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاؤوا، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي. وليقل الناس ما أرادوا عني، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقة.

التضحية

ففي يوم من أواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر في السواحل وطلب الناس أعالي الجبال، سرت كعادتي نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى كرامة حاملاً بيدي كتاباً صغيراً من الموشحات الأندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم تزل إلى الآن تستميل روحي.

بلغت المعبد عند الأصيل فجلست أرقب الطريق المنسابة بين أشجار الليمون والصفصاف، وأنظر من وقت إلى آخر إلى وجه كتابي هامساً في مسامع الأثير أبيات تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنة أوزانها، وتعيد إلى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبة وإشبيلية تاركين في قصورها ومعابدها وحدائقها كل ما في أرواحهم من الآمال والميول ثم تواروا وراء حجب الدهور والدمع في

أجفانهم والحسرة في أكبادهم.

وبعد ساعة التفت فإذا بسلمى تميس بقدها النحيل بين الأشـــجار المحتبكة وتقترب نحوي مســـتندة إلى مظلتها كأنها تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب. ولما بلغت باب الهيكل وجلســـت بقربي نظرت إلى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معاني وأســـراراً جديدة غريبة توحي التحـذر والانتبـاه وتثير حـب الاســـتطلاع والاستقصاء.

وشـــعرت سـلمى بما يجول في خاطري فلم تشـأ أن يطول الصـــراع بين ظنوني وهواجســـي، فوضـــعت يدها على شـــعري وقالت: اقترب مني، اقترب من يا حبيبي، اقترب ودعني أزود نفســـي منك، فقد دنت الســـاعة التي تفرقنا إلى الأبد؟

فصـــرخت قائلاً: ماذا تعنين يا ســـلمى؟ وأية قوة تستطيع أن تفرقنا إلى الأبد؟

فأجابت: إن القوة العمياء التي فرقتنا بالأمس ستفرقنا اليوم. القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك. القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء

على أرواح الناس قد حتمت عليَّ أن لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظم والجماجم.

فسألتها قائلاً: هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه؟

فأجابت: إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي، فهو مشغول بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة إلى أسواق النخاسين فيتعطرن ويكتحلن ليبعن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع.

فقلت: إذاً ماذا يصدك عن المجيء إلى هذا المعبد والجلوس بجانبي أمام هيبة الله وأشباح الأجيال؟ هل مللت النظر إلى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق؟

فأجابت والدمع يراود أجفانها: لا يا حبيبي. إن روحي لم تطب فراقك لأنك شطرها، ولا ملت عيناي النظر إليك لأنك نورهما. ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل فهل أرضى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي؟

فقلت: تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيء ولا

تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات.

فأجابت: لا أقدر أن أقول كل شيء، لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أني أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني.

فقلت: ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ منهم؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة: إن المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه.

فقلت: وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان؟

فأجابت: لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك، ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره، وقد بث علي العيون لترقبني وأوعز إلى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذي أسكنه والطرقات التي أسير عليها نواظر تحدق بي وأصابع تشير

إلي وآذاناً تسمع همس أفكاري.

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها: أنا لا أخاف على نفسي من المطران لأن الغريق لا يخشى البلل. ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أن تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه. أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده.

فقلت: إن من لا تلسعه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي، ولكن اسمعي يا سلمى، اسمعيني جيداً، أليس أمامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشرورهم؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة: لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق.

فأخذت يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد

الدخان عن شعلة فتوتي. فقلت متهيجاً: قد استسلمنا طويلاً إلى أهواء الناس يا سلمى.. منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد إلى العميان أو نركع أمام أصنامهم. مذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين إلى ظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد؟ إن من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي أوقدتها. ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الأبرياء. قد أحببتك يا سلمى وأحببتني، والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة، فهل نرمي بكنزنا إلى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها؟ أمامنا العالم مسرحاً واسعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه؟ أمامنا الحياة وما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة

بأرجلنا ونســـير إلى حيث الراحة والطمأنينة؟ قومي يا ســـلمى نذهب من هذا المعبد الصـــغير إلى هيكل الله الأعظم. هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تطالها أيدي اللصـــوص ولا يبلغها لهاث الأبالسة. تعالي نسرع إلى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلنا إلى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاســـها، ولا تدوســـنا الضـــواري بأقدامها. لا تترددي يا ســـلمى، فهذه الدقائق أثمن من تيجان الملوك وأســـمى من ســـرائر الملائكة. قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة إلى حقول تنبت الأزاهر والرياحين.

فهزت رأســـها وقد شـــخصـــت عيناها بشـــيء غير منظور في فضـــاء ذلك الهيكل، وســـالت على شـــفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم، ثم قالت بهدوء: لا، لا يا حبيبي، إن السماء قد وضعت في يدي كأســـاً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صـــرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا. أما تلك الحياة

الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة فأنا لا أستحقها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع أن يسبح محلقاً في الفضاء، والعيون الرمداء تحدق إلى الأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة، فلا تحدثني عن السعادة لأن ذكرها يؤلمني كالتعاسة، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشقاء.. ولكن انظر إليّ لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري.. أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدها، وهي المحبة التي علمتني أن أحميك حتى ومن نفسي. هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفني الآن عن اتباعك إلى أقاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفي وميولي لكي تحيا أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة. إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها. المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والعناق، أما المحبة التي تولد في أحضان اللا نهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا

تقف متهيبة أمام شـــيء ســـوى الألوهية.. عندما عرفت بالأمس أن المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن الخروج من منزل ابن أخيه ويســـلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها مذ تزوجت، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الواســعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي، وتخيلت نفسي عائشة بقربك، محاطة بأخيلة روحك، مغمورة بانعطافك، ولكن هذه الأحلام التي تنير صـــدور النســاء المظلومات وتجعلهن يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشـــن في ظل الحق والحريـة، لم تمر في خـاطري حتى جعلتني أستصغر نفسي وأستضعفها وأرى محبتنا واهية محدودة لا تســتطيع الوقوف أمام وجه الشــمس. فبكيت بكاء ملك أضـــاع ملكه وغني فقد كنوزه، ولكنني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعي وأبصـرت عينيك محدقتين إليّ، فتذكرت ما قلته لي مرة وهو: هلمي يا ســـلمى نقف أمام الأعداء متلقين شـفار السـيوف بصـدورنا، فإن صـرعنا نمت كالشـــهداء وإن تغلبنا نعش كالأبطال، لأن عذاب النفس بثباتها أمام المصـــاعب والمتاعب هو أشـــرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة. هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي

عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي، وقد ذكرنها بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي فتقويت وتشجعت وشعرت وأنا في ظلمة السجن بنوع من الحرية النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان، ورأيت حبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء. وقد جئت اليوم إليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي المقدرة على تضحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم، تضحية سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم.. كنت أجيء بالأمس إلى هذا المكان والقيود الثقيلة تغل قدمي الضعيفتين، أما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق. كنت أجيء مثل طيف طارق خائف، أما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد أن تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة. كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتي أمام عشتروت المقدسة ويسوع المصلوب. أنا شجرة نابتة في الظل وقد مددت أغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار..

قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب لتجعله أشد لمعاناً.

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت إليّ وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحي الصمت والتخشع، ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها قبل تلك الساعة، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي، وأثارت الأسرار الخفية في نفسي، وجعلت الذات الوضعية التي أدعوها "أنا" تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلاً ونفسها مذبحاً.

ولما غربت الشمس وأمحت أشعتها الأخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل ونظرت طويلاً إلى جدرانه وزواياه كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه، ثم تقدمت قليلاً

وجثت خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة:

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات عشتروت وأفراحها. وقد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب، وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم.

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة:

سأعود الآن فرحة إلى الكهف المظلم حيث تتراكض الأشباح المخيفة، فلا تشفق علي يا حبيبي ولا تخزن من أجلي، لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملأ الأعلى لا تغمضها أوجاع هذا العالم.

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون

الملائكة أعمال البشــر وتتلو الأرواح مأســاة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود.

ولما صــحوت من هذه الســكرة، كان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة، وجدتني هائماً بين تلك البســاتين مســترجعاً إلى حافظتي صــدى كل كلمة لفظتها ســلمى، معيداً إلى نفســي حركاتها وســكناتها وملامح وجهها وملامس يديها، حتى إذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما ســيجيء بعده من ألم الوحشــة ومرارة الشــوق جمدت فكرتي وتراخـت خيوط قلبي وعلمـت لأول مرة أن الإنسان وإن ولد حراً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنها آباؤه وأجداده، وأن القضــاء الذي نتوهمه ســراً علوياً هو استسلام اليوم إلى مآتي الأمس، وخضوع الغد إلى ميول اليوم. وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة إلى هذه الســاعة بالنواميس النفســية التي جعلت ســلمى تختار الموت بدلاً من الحياة، وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيهما أجل وأجمل، ولكنني للآن لم أفهم ســوى حقيقـة واحـدة وهي أن الإخلاص يجعـل جميع الأعمال حسنة وشريفة، وسلمى كرامة كانت الإخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسّدة.

المُنقذ

ومرت خمســـة أعوام على زواج ســـلمى ولم ترزق ولـداً ليوجـد بكيـانـه العلاقـة الروحيـة بينهـا وبين بعلهـا ويقرب بابتســامة نفســيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليل وأوائل النهار.

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لأن الأنانية تصـــور لأكثر الرجال دوام الحياة في أجســـاد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض.

إن الرجل المادي ينظر إلى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها عدو غدار يريد الفتك به. ومنصور بك غالب كان مادياً كالتراب وقاســياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة، وكانت رغبته بابن يرث اســمه وســؤدده تكرهه بســلمى المسكينة وتحول محاسنها في عينيه إلى عيوب جهنمية.

إن الشـــجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً، وســـلمى كرامة كانت في ظل الحياة فلم تثمر أطفالاً. إن البلبل لا يحوك عشـــاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه، وسـلمى كرامة كانت سـجينة الشـقاء فلم تقسـم السـماء حياتها إلى أسـيرين. إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها انعطاف الشـمس وشـغف الطبيعة، وأطفال البشـر أزاهر يلدها الحب والحنو، فســلمى كرامة لم تشـــعر قط بـأنفاس الحنو وملامس الانعطـاف في ذلك المنزل الفخم القائم على شـــاطئ البحر في رأس بيروت، ولكنها كانت تصلي في سكينة الليالي ضارعة أمام السماء لتبعث إليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها.

وقد صلت سلمى متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاة وابتهالاً، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم، فسـمعت السـماء نداءها وبثت في أحشـائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعذوبة وأعدتها بعد خمســة أعوام من زواجها لتصيرها أما وتمحو ذلها وعارها.

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لتثمر.

البلبل المســجون في القفص قد هم ليحوك عشــاً من ريش جناحيه.

القيثارة التي طرحت تحت الأقدام قد وضـــعت في مهب نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها.

ســلمى كرامة المســكينة قد مددت ذراعيها المكبلتين بالسلاسل لتقتبل موهبة السماء.

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الأزلية لتصـــيرها أماً. كل ما في يقظة الربيع من الجمال، وكل ما في مجيء الفجر من المســـرة، يجتمع بين أضـــلع المرأة التي حرمها الله ثم أعطاها.

لا يوجد نور أشــد ســطوعاً وأكثر لمعاناً من الأشــعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الأحشاء.

وكان نيسـان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عندما تمت أيام ســـلمى لتلد بكرها، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضـــع حمل أزاهرها وتلف بأقمطة الحرارة أطفال الأعشاب والرياحين.

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما

يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح، وتنظر إلى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشاً، وقد طالما ظهرت الأشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع.

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والأوجاع، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما إلى هذا العالم ضيفاً جديداً، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب.. صراخ انفصال الحياة عن الحياة.. صراخ محبة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم.. صراخ قوة الإنسان المحدودة أمام سكينة القوى غير المتناهية.. صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام جبارين: الموت والحياة.

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً، ولما سمعت إهلاله فتحت عينيها المغلفتين بالألم ونظرت حواليها فرأت الأوجه متهللة في جوانب تلك الغرفة.. ولما نظرت ثانية رأت الحياة والموت مازالا يتصارعان بقرب مضجعها،

فعادت وأغمضت عينيها وصرخت لأول مرة: يا ولدي.

ولفت القابلة الطفل بالأقمطة الحريرية ووضعته حذاء أمه، أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه صامتاً بين الدقيقة والأخرى.

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاؤوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده، أما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها.

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وارثه ويملؤوا أيديهم من عطاياه، أما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين إلى سلمى وابنها.

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح عينيه لأول مرة ونظر في عينيها واختلج وأغمضهما لآخر مرة، فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً: هو زائر راحل!.

مات الطفل وسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً، وسلمى المسكينة تحدق إلى الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي

لأضمه. ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها.

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي الفرحين بمجيئه.

ولد مع الفجر، ومات عند طلوع الشمس، فأي بشري يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر يمر بين ظهور الأمم وتواريها؟

ولد كالفكر، ومات كالتنهدة، واختفى كالظل، فأذاق سلمى كرامة طعم الأمومة، ولكنه لم يبق ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها.

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار، فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها ملامس النور.

كلمة لفظتها النواميس الأزلية، ثم ندمت عليها وأعادتها إلى سكينة الأبدية.

لؤلؤة قذفها المد إلى الشاطئ، ثم جرفها الجزر إلى الأعماق.

زنبقة ما انبثقت من أكمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت.

ضيف عزيز ترقبت سلمى قدومه، لكنه ما حل حتى ارتحل، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى..

جنينٌ ما صار طفلاً حتى صار تراباً ـــ وهذه حياة الإنسان بل حياة الشعوب، بل حياة الشموس والأقمار والكواكب، وحولت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلة:

أعطني ابني لأضمه بذراعي.. أعطني ولدي لأرضعه..

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه:

قد مات طفلك يا سيدتي فتجلدي وتصبري لكي تعيشي بعده.

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكتت هنيهة، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء: أعطني جثة ولدي. قربه مني ميتاً.

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته إلى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت

تخاطبه:

قد جئت لتأخذني يا ولدي. جئت لتدلني على الطريق المؤدية إلى الساحل. ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم.

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفره هيبة الأمومة وتظلله أجنحة الموت.

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعويل، أما منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب.

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشى بالمخمل الناصع، أما طفلها فكانت أكفانه أقمطته وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادئ.

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلب في صدور المنازعين، فسار المشيعون

وسرت بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي.

بلغوا المقبرة فانتصـــب المطران بولس غالب يرتل ويعزم، ووقف الكهان حوله ينغمون ويســبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول.

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلاً:

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد..

وقال آخر:

كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته.

وقال آخر:

تأملوا وجه منصور بك فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد.

وقال آخر:

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسماً.

وظل الكهان يرتلون ويســبحون حتى فرغ حفار القبور

من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن أخيه يصبرونهما ويؤاسونهما بمستعذبات الكلام، أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يعزيني على مصيبتي، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ.

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد، وفي يده رفشه ومحفره، فدنوت منه وسألته قائلاً:

أتذكر أين قبر فارس كرامة؟

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر سلمى وقال:

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش.

فأجبته وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل، فما أقوى ساعديك!.

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر والتجلد فارتميت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها.

الفهرس

مدخل إلى أدب جبران ٥
سيرة جبران ٨
عوامل التكوين ١٧
بنية الأدب الجبراني ٢٠
الرومانسية ٢١
الواقعيّة ٢٣
الصوفيّة ٢٦
الثوريّة ٢٩
الحداثة ٣٣
الأجنحة المتكسرة ٣٩
دراسة تحليليّة ٣٩
الأجنحة المتكسرة ٥٧
تـوطئـة ٥٩
الكآبــة الخرساء ٦٣
يـد القضاء ٦٨
في بـاب الهيـكل ٧٤
الشعلـة البيضـاء ٨١

العاصفة ٨٥
بحيرة النار ١٠٢
أمام عرش الموت.. ١٢٤
بين عشتروت والمسيح.. ١٤٤
التضحية... ١٥٢
المُنقـذ ١٦٥